اتجاه إجبارى

حسن غريب أحمد

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم القناة وسيناء الثقافي
فرع ثقافة شمال سيناء

الغلاف / للفنان سيد السقا

كلمة الثقافة

شمال سيناء البوابة الشرقية لمصر المتميزة بخصوصية الزمان والمكان فيها عبق التاريخ والأحداث وفيها جمال التنمية والتطور وها نحن اليوم نقدم نماذجاً متطورة لابنائها في الشعر والنثر والقصة والرواية في مجال الابداع الأدبي والذي يمثل جانباً هاماً من الانشطة الثقافية بالهيئة العامة لقصور الثقافة التي تتبني الابداع والمبدعين علي ارض مصر.

تمنياتي بمزيد من الادباء والمبدعين من كل ربوع سيناء حتي نتمكن من تقديم إبداعاتهم للقراء وكل المحبين للآدب والفنون مع عظيم شكري وتقديري لهذا التبني الجاد من السيد الاستاذ/ أنس الفقي رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة والفنان/ عبد الرحمن نور الدين رئيس إقليم القناة وسيناء الثقافي، للدعم الكامل للأنشطة الثقافية علي أرض سيناء.

ومع أطيب تمنياتي...،

محمد أحمد عبد العظيم

مدير عام ثقافة شمال سيناء

ما قبل الإهداء

إلى المتفردة .. التي سرقت

أصغر ذرات الحُلم .

أهديها بعضاً هو كُلي

حسن غريب

الإهـــــداء

إلي

سيناء الحبيبة بربوعها و جبالها و بحرها
ورمالها ونخيلها .. أعشقك حتى النخاع .

إلى

روح شقيقتي الغالية (منيرة) التي قد
اسكنتنى برحيلها ٢٦ ديسمبر ٢٠٠١م

إلي

روح أمي الذكية الطاهرة دائماً و أبداً
لم ولن أنساك

إلي

العزيزة (منى) وأحبائى
إسلام و أحمد و عمرو

حســـن غريـــب

أوراق الريح تتوهج

يستيقظ على صوت المؤذن يصلى الفجر ويتناول القليل من الجبن القريش ورغيفين من خبز التنور زوجته استيقظت قبله بفترة قليلة – سحرت الثورين – يتناول علبة التبغ المعدنية ويصنع لفافة يموج دخانها وهو مستند إلى جدار المصطبة التينة البيضاء أمام المنزل يردد مع تنهيدة طويلة : ماذا ينفع العليق عند الغارة ؟ الثوران أمام الإسطبل وضعت لك زوادتى تيناً يابس مع أرغفة خبز : الكون ترتيلة صباحية مكللة بالندى ونجمة الصباح تسترق السمع ..إن شاء الله اليوم أنجز حراثة الكرم الغربي إرسلى الآذان مع زيدان حتى يحمل العدة وينقلها إلى وادي السنديانة لا تنسى النير .... أى و الله ذكرتني لعن الله حسن النايف .. نصف جنية ثمن النير والخشبة من عندنا وماذا يقول : سأضع لك يا أبا زيدان نيرًا حديثا لم يستعمله أحد من الفلاحين قبلك و الله يا أم زيدان النير بقى نيراً بالطول و العرض .

ينهى سيجارته .. ينتصب واقفاً كسنديانة الوادي الشرقى تزيدها السنون شموخاً وصلابة غير آبه بالسنوات الخمسين التي أمضاها في الحراثة والحصاد .. والهمة تشده كما تشد وسطه قبضة الجلد العتيقة و التى يحتفظ بها وسام فخار من أيام مشاركته بالمقاومة الشعبية فى سيناء ، حيث صرع ضابطاً إسرائيليا بكلتا يديه دون سلاح .. والله يا أم زيدان لو أن الله يجعل البحر ترابا لكنت أحرثه بهذه السكة ..يتمطق نير وكأنه قبل ثلاثين عاماً يحمل بندقيته و اتجه إلى شعاب الجبل بوادي العريش ثائراً .. يحمل الزواد فى يده والثوران أمامه ينادى : " يا فتاح يا عليم " يحمل نازلا في أزقة الحي إلى طريق العين الحجرية و التي كان لوقع خطواته عليها إيقاعاً

موسيقيا يؤنس نجمةَ الصبح .. يشرد ذهنه يتذكر أيام الصبا .. حيث النساء يحملنَ جرار الماء من العين وكيف كان يكمن لهن تحت شجرة الزيتون ليلتقي بـ (منى) و التي أصبحت زوجته و قد أنجبت له فى البداية أربع فتيات ثم ثلاثةَ صبيَّة أكبرهم زيدان و الذي لم يشب عن الطوق بعد .. سأنتظر عاما عامين ريثما يكبر زيدان ويستلم المحرك ليساعدني فى القضاء على تلك الآفة الملعونة التى لا أعلم من أين أتت ؟ من الأرض أم من الشيطانين ؟ والتى ما تزال تفتك بالمحاصيل منذ سنوات وتذهب تعبي سدى سنعمل سويا لإطعام خمسة أفواه جائعة ووحده يستطيع أن يضع حداً لآل سلال الذين استولوا على قسم من أرضى ..

يصعد سفح الجبل ثم يغوص فى بحر من أشجار الزيتون .. يمزق غابة السكون موال تصدحه حنجرته ..(همي لو نزل ع الجبال .. ماذا) الشمس ما تزال فى لقائها الأخير والشفق الأحمر يرسم خيوطه على وجنتي السماء ونجمةَ الصباح يرهقها السهر فتذهب إلى مخدعها تحمل حكاية لم تنته .

المسافة تتلاشى .. يصل إلى مشارف حقله .. لينظر إلى عدةْ الفلاحة .. تصعقه المفاجأة .. لم يجد سوى المحراث لعن الله الشيطان .. كيف تسير النير ؟ لعن الله أم زيدان ومن يتكل عليها .. يقيد الثورين يعود أدراجه إلى الحي ليحضر النير الذي ظن نسيانه أمام المنزل .. تشرق الشمس يعنى أن نهاره تعكر من أوله .. يسرع الخطى .. يباعد بينها إلا أن المسير يرهقه يصل على العين ..ينحني ليملأ كفيه بالماء ليشرب ويتابع المسير .. يصدمه شئ على مؤخرة رأسه ينتفض كصاعقة يشتم .. تحسس الشيء فإذا بالنير معلق على كتفه .

اتجاه اجباري!!

وضعت رأسها المتعب علي وسادتها ولم تلبث كراتٌ شفافة صافية حارة أن تدحرجت علي خديها وأغرقت كفيها اللتين تعانقان وسادتها البيضاء الناصعة .. غامت عيناها العسليتان وهما تئنان تحت وطأة الرموش المبللة .. الصبح يقترب من الوجوه ونظراتها المسمرة كما هي لم تتغير منذ المساء ـ وتتكرر الكلمات والجمل وتزدحم داخل هذا التجويف الذي يسميه الجميع رأساً "عالمي أنتِ .. حياتي كلها .. قلبي وعقلي وقلمي بين يديك" لكن عقلها يرفض كل هذه الجمل والمفردات هناك على ذاك المقعد الخشبي الأخضر العتيق في الحديقة الكبرى كنا متلاصقين..الجو يميل إلى ربيعي .. نسمات رقيقة لطيفة تداعب شعرها البني المسترسل..تزداد قوتها في بعض الأحيان .. لتعبث بخصلاته فتدغدغ صنع الصغير .. يتلو علي مسامعها أفكاره المعتادة .. يطالبها باتخاذ قرار بشأن علاقتهما .. تضيق الدنيا في عينيها الواسعتين تجهز بنفسها تتكمش كما الخائف الملتاع .. يكبر الهم في قلبها ويتمثل لها الفرح الحقيقي إنساناً خيالياً لا تراه إلا في أفلام الصغار .. ولا تسمع عنه إلا في الأساطير والقصص الخرافية ذلك الإنسان المنقذ الذي يعرف متى يأتي ومتي يذهب متي يفرح ومتي يحزن .. أين يكون وجوده ضرورياً وأين ينعدم .. يعرف أي القلوب يلج إليها .. وأيها يبتعد عنها .. يستمر تدفق كلماته الجميلة .. يرسم لها عوالم كثيرة حلوة .. تتلذذ بعوالمه البراقة ينسلب صوته بعذوبة في حناياها وهو يناجيها .. هذا ليس رأيي الشخصي فقط إنه رأي الناس الذين حولي .. أصدقائي الكل يشجعني علي علاقتي بك .. أرجوكِ فكري قليلاً بهذا الإنسان الغريب الذي أصبحتِ وطنه صدقيني انك وهذه المدينة .. شئ واحد إنتمائي .. دفء الاستقرار.

يتحرك جسدها بتثاقل فوق الفراش عيناها مغمضتان .. تريد الحفـــاظ علـــي أفكارها خشية الهروب .. هل هي حقاً تحبه ؟ وإذا كانت تحبه فلماذا الـــتردد بالارتباط به هل هي متعلقة به لأنه كان سبب شهرتها أم لأنه يحمـــــل فـــي جنباته كل ذاك الدفق العاطفي الصادق والمخلص. أم لأنها طالمـــــا حلُمــت بالزواج من شخص مهم مثقف ومتفهم ولا تستطيع التنازل عن حريتـــها الآن وهو إلي متي سيبقى علي حاله ؟ لكل شئ نهايـــة ولابـــد أن ينفـــذ صـــبره يوماً..وتعود بأفكارها إلي المقعد العتيق المطل علي البحر، هناك حيث استمر النقاش العقيم بينها وبينه وبكل ما يحمل لها من حب يدعوها إلـــــي عالمـــه. تعالى إليّ .. إلى عالمي الجميل والمتواضع. أنتِ تنتمين إلى هذا العالم وليس إلي سواه. تحلي بالجرأة ولو مرة اتخذي قراراً .. تعالي إليّ نبني مجد الكتابة معا ونعيش الحياة بكل أبعادها .. أخرجي مـــن دائرتـــك الضيقـــة تطلعـــي للمستقبل ولا تدعي الجزئيات الصغيرة والكثيرة للحياة تستهلك مـــــا لديـــك. اكتبي عني .. كتبتي قصصًا كثيرة لم أكن أنا أحد أبطالـــــها .. أليـــس هـــذا مستغربًا ؟!

هدوء فظيع لا يقطعه إلا حفيف ثوب نومها .. توقفت آلة التسجيل عن العمل دون أن تحس بالمعزوفات الموسيقية الرقيقة التي ترافقها كـــــل ليلـــة، دوي سيارة القمامة في الخارج يشق الليل وأصوات جامعي القمامة نقلها من عمق تفكيرها لم يطل مكوثهم .. كان صوت السيارة الذي يتلاشى شيئاً فشيئاً وهي تغادر الحي آخر الأصوات التي سمعتها ليلتها قبل أن تخلد لنوم عميق.

أفول نهار أخضر !!

كان رجلاً نحيفاً .. غامق السمرة .. كث الشاربين اقترب من طفل يجلس أمام أحد البيوت .وأنتزع منه قطعة خبز كانت في يده الصغيرة.

ثم تابع يصفع أسفلت الشارع بقدميه تاركاً نحيب الطفل يسرع كآبة رمادية الأجنحة في الفضاء الصغير.

تأملته مستنكراً فقفزت أشباحه من ذاكرتي كأسراب الجراد الجوعى.

يا إلهي إنه ذات الرجل الذي ذبح حديقة النخيل في حينا قبل أيام.

الرجل الذي خنق بلبلاً ينظر إلي البحر ثم ألقاه في حفرة ما لها بالأسود.

الرجل الذي .. أجل هو .. هو.

ارتبكت الدماء في شراييني وكتمت صرخة انفجار غافية بين ضلوعي. ثم هرعت أشق هواء الشوارع، مشتت الأفكار كخيط شمس أضاع صدر النهار.

قبل أن ألمح ظهر شرطي يذرع أحد الأرصفة علي الكورنيش وكان الناس يبصرونه من بعيد فينأون عنه مذعورى الخطي .. ركضت نحوه .. كان ذا ساقين قصيرتين، ويداه طويلتان تصلان إلي ما تحت الركبتين .. وقفت قبالته مشغول الصوت .. أردت أن أكلمه أخبره بما رأيت أخذت يداي تشرحان له وكاد صوتي يجد حروفه عندما ارتفعت كفه السميكة وانهالت عليَّ بوابل من الصفعات .. رأيت بعدها ليلا نجومه طحالب .. ثم أولج أصابعه واشتد لساني من جذوره ، وفقأ عيني فأكلها الليل وراء حقول من الجمر لا نهاية لها .. وبعد ذلك سلمني لغبار الرصيف ومضى يذرع طريقا أحمر.

وبقيت أسمع دبيب المشاة ثم أشعر بالأقدام تقترب مني وتطأ رأسي وأحسست بمئات من النظرات تسحقني ولم يفه أحد بكلمة واحدة. "فقط كانوا ينظرون وهم يتدفقون مسرعين.

انكسار

خرجتُ من الحجرة وتركتُ كل شئ على حاله، كـــان يدخـــن فـــي ســـرير كالغصن اليابس قاسياً متجمداً أو خفيفاً ، كان الظلام يزداد في الحجرة رغـــم أن البللور كان واسعاً ..

والبراجيل مفتوحة ... تبدو بيوتاً رمادية مسودة متشابهة .. مستسلمة للظـــلام يمكن أن يظل هنا للأبد.

كانت في المطبخ تقلي "بيف" من تلك ماركة العلبة الحمراء والبيضاء التـــي عليها رأس ثور بالبني كأنها كانت تدمع عند المقلات التي تحركـــها بمعلقـــة خشبية .. لم يحل الليل بعد .. كانت النار وحبيبات الزيت تضئ وتزقـــزق .. وجد نفسه يقوم .. اتجه إلى المطبخ وجلس علي الطاولة ثم قام وصب لنفســه قهوة باردة في فنجان أبيض لامع وشرع يشرب ساكتاً.

بالنسبة لها كأن أحداً لم يدخل المطبخ.

هذه الجثة لي !!

في شارع عام حاولت إطفاء الفضيحة بوردة حمراء أضعـــها علـــي ياقـــة القميص وزجاجة احملها في يدي كنت قد خرجت لتوي منبوذاً من قبل أعظم الشخصيات فالرجال والنساء في المقاهي والحانات يعانون مشـــكلة إثبـــات الذات .. في المقاهي تسقط الأقنعة وتتـــهاوى الأشـــياء المزيفـــة .. كـــانت خشخشة مقام النهاوند أطيب رائحة استنشقها منذ سنوات وبعـــد أن طردنـــي السفهاء من عناوين جريدتي وأصبحت خارجا عن تفاعيل القصيدة وأشـــبعت فمي نهما في جسد الحبيبة – ضربت الأرض بقدمي وأقنعت نفســـي بـــأني فوضوي .لاريب في أنني مشيت زمنا طويلا دون أن أدري .. قدماي تئنـــان كعجلات صدئة مستسلمة لقائد أهوج فما كان مني إلا أن أبكـــي وأضحـــك وأغني .. نزفت كديك مجروح وكأني فتى في تروح كل ما كان يهمني فـــي ذاك الوقت .. إيجاد مكان آوي إليه .. قَلَّ أن يلتقطنى رجال الشرطة لأن هذا الصنف من الناس يصعب التعامل معه ... فهم لا يراعون كرامة لأي كـــائن في الوطن العربي هذا.

جلست علي قارعة الطريق وأنا احمل الزجاجة اللعينة حـــاولت محاورتـــها ولكنها لم تجب .. أخذت أتذكر سبب وجودي في هذا المكان المنعـــزل فـــي موسيقاه وصخبه وصراخه .. المنعزل في كل شئ حتى في آهاته وضحكاته لم يكن المكان فاخرا ولكنه كان يبعث بالروائح الإنسانية بـــالحزن والعـــرق والخبز .. تذكرت أني من البشر الناقمين دائماً .. العابثين المهدورة حقوقـــهم والذين عندما تسود الدنيا في وجوههم يلجأون إلي بطحة عرق أو كـــأس .. حزنت علي نفسي لا لأني تعبت من هذا أو لأني ضعيف بل لأنـــي مـــازلت احمل رمح (دون كيشوت) تذكرت معلم التربية الدينية عندما كان يقـــول: لا

تعشق امرأة إن ضوء الحب أحمر .. لا تغادر مكانك بالشمع قبل الطقوس .. فإن الضوء أحمر .. ويأتيك معلم التاريخ فيقول لا تذكر الذيـــن اغتصبـوا الوطن وشمس الوطن فإن سيف القمع يأتيك في الكأس أو في بقايـا قـهوتك الصباحية .. وترى الأب واعظا في جلسة عائلية يقول: لا تسـافر بجـواز عربي بين أحياء العرب .. فكلهم من أجل قرش يأكلونك وعندما يجوعـون مساء يأكلونك ..

وتأتيك نصيحة ممن يعتبرون أنفسهم بعد الرب ويقولون: لا تسر وحدك ليـلا بين أنياب العرب .. صوروا لنا الحياة بركانا مكبوتا تشعله سـيجارة.. ولا يحق لأي فرد استعمال (كارت الفيتو) كل هذا جعلني ابحث عن حانة ادفـن فيها تعبي وإرهاقي .. كل هذا جعلني أفرغ أخر جنيهين ونصف لأدفع ثمـن ارخص بطحة عرق وبعدها ألقي بالأحذية الفاخرة والرخيصة خارج الحافلـة ليتبعني عشرات العيون التي تتأملنى بسخرية .. عشرات الأصابع تشير إلـيّ باحتقار وأنا أخاف من شبكة الأصابع الساخرة .. وارتـع مـن النظـرات العنكبوتية المستنكرة .. تصورت نفسي في تلك اللحظة بالذات .. اني دميـة راقصة تباع بسوق الخميس والرجال والنساء يصفقون ويرفعون المـزاد .. رقصت حتى حفيت قدماي واذ بي في النهاية أرتمي علـي الأرض لتـأتي زوجتي وتقول لي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم خير اللهم اجعله خـير ..

فأسألها وكأني أتكلم مع نفسي .. وعلى من رسى المزاد؟

فترد الزوجة: ماذا دهاك يا رجل؟ عن أي مزاد تتكلم؟

فاصرخ بها كمن أدرك خطأه متأخرا .. كم من مرة قلت لك يا امرأة ابعـدي هذه الطاولة من هنا .. ألا تعلمين أني كثير التقلب والأرق في الليل؟

فتجيبه الزوجة: حاضر يا حياتي سوف أبعدها مع أنها حتى لو بقيـت لـن تحطم رأسك العربي هذا.

فيرد عليها الزوج: وفي صوته لهجة بكورية آمـــرة .. حضـــري الفطـــور لاستحم لا أريد أي تأخير.

وهناك يغني الزوج: (ليالي الأنس في فينا نسيمـها من هوى الجنة).

فتلطم الزوجة وجهها قائلة: جن الرجل جن الرجل.

همس الجسد !!

مثلما يرقد الموج .. مثلما ينحصر ضباب الشتاء .. مثلماتعبر الطيور سبيل السماء الأزرق في لحظة صحو .. هكذا ركضت السنون والطفلة ترتقي حب الأرض وحنان الصدر الذي احتواها أول مرة وتتعرف أشياء الكون واحداً إثر آخر هكذا اقتطفت من عمر الدهور ستة سنين وبقيت وحيدة تلك الوالدة الفقيرة.

تأكل الفقر طعاماً وتشربه وتحمد الله.

وتصبح أكثر إشفاقا ورقة ورحمة، تنام علي ظلام الشمعة المنتهية وتصب علي نور بدأ يسطع في قلبها قبل انجلاء الليل وحين تنام لا تحلم سوي بوالدتها فهي الجدار الذي يحميها من عواصف الأيام وهي الغطاء الذي يقيها الصقيع وغربة العالم.

علي دروب المدرسة بين الأزقة الضيقة وشرفات المنازل الواطئة.

كان قلبها أول ما يلتقط ضوء صباح، يروح يخفق رائحة الخبز المشوي في اثناء عبورها امام الفرن ولطالما وقفت قبالة الفرن دون كلمة وفي وسعها كل الكلام.

ثم تركت بقدميها أن تخطو بعيدا عن الاشتهاء، متلقنة أول درس من الحياة في الصبر والقناعة.

في المساءات الندية حين كان الظلام يهجم بقسوة حاملاً البرودة امتحاناً مراً لأطفال فقراء.

كانت تسير عائدة إلي البيت ملتحفة بأحلام الدفء والشروق الآتي، تشق بقدميها طريقا بين الثلوج ولكنها لا تنسي ان تخرج وسط البرد الزمهرير أن تخرج كفيها الصغيرتين من جيوبها لتلم الياسمين المتناثر علي الرصيف من

أجل الوالدة. وحين يهجم الليل البارد وتشرف الشمعة الوحيدة علي الانطفاء. كانت تذاكر دروسها بسرعة وترمق الضياء المتلاشي بآخر نظـــرة ناعســـة وهي تشد الغطاء علي صدرها وتختفي بين طياته وطيات صــــدر الوالـــدة.
خمسة عشر عاماً وخمس عشرة مرة جمعت في الحقول الغلال. خمسة عشر مرة أزهر الصيف قمراً ساهرا وجوداً خانقاً ومشاوير. خمسة عشر ربيعــــاً وخريفاً وشتاءً.
فصول أطاحت بأيام طفولتها العذبة ونثرت ورق دفاترها علـــي الأرصفـــة، زرعتها وردة إحساس وشفافية في صحراء زمن مجدب. كثيرا مــــا كـــانت تلتقي بهم غرباء يضئ الجشع اصفر في وجوههم.
كثيراً ما اصطدمت براءتها التي تبلغ حتى السذاجة لقلوب مجرمة وهـــي لا تدري كيف تصبح القلوب مجرمة ؟!!
كثيراً ما انحنت تلملم أشلاء زهرة مزقتها صديقتها ورمتها للتـــو و لملمــت معها أحلامها المُكسرة واحداً إثر الأخر.
حينا وقفت ذات ربيع فى وجه حزمة أشعة متسربة على مدى بــــاب البيــت وصدت النور كله عن الداخل .. تطلعت والدتها إلى قامتها الفارعةً بفـــرح ممزوج بمرارة و تمتمت كأنما لنفسها:
غداً تفرد ابنتى جناحيها و تترك هذا العش الفقير.
ما اشد انبعاث طاقةً الجمال من هيكلك يا حبيبتي يا حبيبتي.
اسمعى يا أمى الأمر ليس كما تظنين لسوف ابقى معك ما دام الدهـــر و مـــا دامت الحياة .

لم يعد سراً

وقع خطواتك كان واقعا جدا ليلة البارحة، حتى أن النوم قد هجر في جفنـــي، لم تكن وحدك فجليلة الخطوات الأخرى مع الصرير المصاحب لها أكد لـــي ذلك. جمدتُ علي سريري وأنا أسمعكم تجتازون حديقة المنزل، صوت فتـح الباب زادني رعبا، "إنك تقترب فالممر المؤدي إلى حجرتي ليـس طويـلا"، أغمضت عيني لا أدري كيف طفرت الدموع من بين جفنـــي اللذيـن كـاد يلتحمان بعضهما ببعضهما الأخر بل لا أدري كيف بكيت!! لم أكن أعي أنني أبكي كل ما وعيته إنك أتيت .. كيف سأستقبلك أو كيف ستستضيفني؟ بل مـا الزاد الذي أستطيع حمله قبل أن أصير إلى ذراعيك؟ يا إلهي لم يعـد هنـاك متسع من الوقت. بدت لي دقائق حياتي صـورة هزيلـة لا معنـي لـها.. أصابعي المتشابكة فوق صدري تحجرت .. قلبي لا أدري إلي أي قعر قـذف بنفسه .. لساني كان يتلفظ وعبرات الضراعة ترامت هنا وهناك .. لم أستطع حينها أن أحدد إن كانت تصدر عني أم لا !! لكنني أحسست أن كل جارحـة فيّ تحولت إلي توسلات صارخة .. الأرض مادت من تحتي بشدة، وها قـد وصلتَ حجرتي فماتت الجلبة علي عتبتها .. ها أنت تدنو يلفك الوجـوم . آه أنفاسك بدأت تلفحني .. لا أجرؤ علي فتح عيني لأراك لكنني أشعر بك تماما تحوم حول سريري قف علي يميني ستمد ذراعيك الآن نحو وجهي آه يا إلهي ليتني استعدت لزيارتك لرحلتي معك .. أصابعي المتشنجة كادت تتكسر وهي تتقلص بشدة فوق ضلوعي، لم يمد ذراعيه بعد .. تري هـل ذهب لا .. لا .. إني أسمع حثيث خطواته علي السجادة، عاد ليقف عند رأسي أشـعر بـهذا تماما يا إلهي ستلسعني لمسات أنامله الآن لا محالة ما هذا إنه لا يأتي بـأي حركة، لكنه لا يزال عند رأسي .. أيعقل أنه يتأملني، آه ما أصعـب هـذه

اللحظات .. نعم ربما تمنيتك أحيانا "وأعترف أني آنست في نفسي ترحيبا بك في الأيام الأخيرة الماضية. لكنني لم أتوقعك الآن. أو علي الأقل ليس بـــهذه الطريقة، والآن ما أتعسني وأنا أشعر بك قائما عند رأسي، أنتظــر وأتخيــل برعب كيف ستبدأ لكنني لا أستطيع التخمين كيف ستنتهي. لازلت ساكنا مــا الذي تفكر به وأنت تنظر إليَّ يا تري؟ يا إلهي .. ها أنت تنحني فوق رأسي، أنفاسك الباردة تحرقني .. جداول العرق علي جسدي تبعــثرت غرقــا منــك وأسناني غارت في فكي لشدة ما أصطكت فزعا، قسوة نظراتـــك اخــترقت جسدي حتى سحقت عظامي، لازلت منحنيا فوق رأسي تستمتع بتعذيبي .. لا .. يا إلهي لم أعد أحتمل، خلصت أصابعي المتشابكة من بعضها بصعوبـــة ورفعتها فوق رأسي لأدفعه عني وفتحت عيني وأنا أتخيل هول المنظر الـذي سأراه وألجمتني المفاجأة .. حاولت النطق فلم أستطع أدركت فورًا أنني بــت طوال الليل أصارع طيفا ظننته الموت.

وخزته صراحتها .. ورأى في عينيها الهادئتين الكئيبتين عمقاً لم يره من قبل
.. الديك شئ من النصوص التي تعيدين صياغتها؟
أظهرت له نصاً للمحاضرة التي ألقاها في الأسبوع الماضي وكانت محاضرة معقدة حوت كثيراً من المصطلحات الغريبة.
ذهل لفرط المفاجأة .. رأى كلماته وقد صيغ بأسلوب أدبي رفيع دون إسقاط أي من المصطلحات أو التعريفات.
طلب منها أن تقرأ ما تكتبه على زملائها لكنها رفضت .. وبذات الطريقة التي كانت تتحدث بها:
- أنا لا أكتب بغية إلقاء الخطابات إنما بغرض الفائدة العلمية فقط.
والكل يعلم أنني أعيرنصوصي لمن يرغب، كادت كلماتها تفجر مكامن غضبه .. بيد أن فطنته لم تكنْ غائبة، وتمكن من بصيرته النافذة أن يلحظ فقدها للحوافز.
عقد انتهاء المحاضرة .. تحلقت الطالبات حوله كالعادة ... لكن شعوراً غريباً جعله يقطع إجاباته المقتضبة ويناديها باسمها قبل أن تتواري في انعطاف أخر الممر.
- لم تحدثيني عن قراءتك لابد أنك تخصصين وقتاً كافياً للمطالعة؟
- أخصص أثنتي عشرة ساعة يومياً، لم يفاجئه الجواب كثيرا بقدرما أثار لديه رغبة عارمة للتحدث إليها.
بدأ الاثنان حديثاً لا يكاد ينتهي لم يكن عليه إلا أن يسلط الضوء علي موضوع معين حتى تتفجر ينابيع المعرفة لديها.
تقفز بين فقرات الموضوع الرئيسية بمهارة عجيبة ثم تربط بينها بطريقة أنيقة

جاءت الأسئلة المقدمة في النهاية بعد اعادة صياغتها لتتحول الأسئلة المطروحة إلى إجابات بينه فيرتدي الموضوع حلة بهية ورداء مهيباً.

تحدثا في المنطق والفلسفة والدين وعلم النفس توقفت عند(آينشتين) وأسقطت نسبيّته علي كثير من المواقف الإنسانية.

لكنه أصر علي المزاوجة بين الأدب والمشاعر الإنسانية، وأسترسل في عملية إثبات أن رومانسية الأدب أكثر قدرة علي رفع لواء العواطف من صلابة العلم.

استطاع أن يقود الحديث بطريقة ذكية وغير مباشرة لاستعراض حياة شخصيات من امثال (هيلين كيلار) و (بيتهوفن) إلا أنه لم يلجأ إلي المقارنة ولو لمرة واحدة.

أخذا يقطعان الممر جيئة وذهاباً، ويأس الباقون مع مرور الوقت من إمكانية المشاركة في الحديث فانصرفوا الواحد تلو الاخر.

لم يشعر بانصرافهم أو إن انصرافهم لم يرع انتباهه.

وبقي مستغرقا في الحديث حتى فارقت الشمس هامة السماء .. نظر إلى ساعته ثم إلى عينيها اللتين بدأتا تستعيدان شيئاً من بريقهما.

همّا بالنزول علي درج الكلية فودعها أن يعرض عليها مساعدة من أي نوع.

نزلت علي الدرج بخطي ثابته وشعرت بحرارة تسري في جوارحها.

وصلت البيت، وانطلق إلى غرفة نومها .فتحت باب الخزانة وقفت قبالة المرآة دون وجل .. شعرت برطوبة في مقليتها ..

لم تكن دموعاً ... لقد بدأ الصقيع البري بالذوبان.

غفران !!

توالت الأيام والكوابيس تثير حناجر الشمات على حلم حتى أرهقت كل بوصة من أقاليم جسدي وتشهد أوراقي علي التي في مداها كتبتها وقتلتها واغرقتـــها معي وهناك في ظل الشدة وحنان الضمة كم انتظرتها وأحـــاول أن أنســاها واعترف أمام مرآتي الباكية علي أنني نسيتها .. يفقز الصمت مثل قط بـــري بيننا يلجم كلماتي عن الخروج يقيد برعونة خفق نبضـــي .. لمـــاذا تظلمنــا المسافات وتقسو الأيام علي جراح حبنا .. تلف عليها ملح الشـــوق وتنظـــر بإمعان إلي أمنل غفران: أين ذهبت ألا تسمعيني؟ .. كان الصوت قادم مـــن عمق العمق .. لماذا لا استطيع أن أجيب ما هذا الذي أخرســـني . أمســكت أناملي وداعبتها بوعد وحنان قائلة: شعرت أنك هنا فأتيتك أعترف أن الغياب خطيئتي التي لا غفران لها.

جئت بألم الوجد لاعتذر .. ما نال عقلي ونبض قلبي بوصلته.

بكت أهداب العيون .. من تراه منا الذي يكذب أهي أم تراني أنا؟ لمـــاذا يـــا قدر .. لماذا يصيبنا الوهن في لقاء المعجزة .. أفتش في أدراج أيام خلت عن مبرر نفسي لها وكنت قد أقسمت أن هذا اللقاء هو المحال .. لكـــن دهشـــت القدوم .. كانت جسر الحنين الذي أيقظني هزا .. وإذا بي وجها لوجه كمـــا المرآة .. كم غيرنا البعاد يا قلبي .. يصيبني الذهول كم تشبهني .. كم أشبهها .. أتراه الحلم أبداً ليس ذلك.

غفران:- نادت وكأنَّ الدمع غسل عما في اعماقنـــا غبـــار الغربـــة وقســـوة الانتظار .. يتشعب الحنين نظراتنا .. ارتعشت أوراجي رفرف قلبي كطـــائر صادفه الربيع.

نعم إني اسمع نبض قلبها كطبول فارحة واقرأ الفرح في عينها بترتيل لمـــا

تبسمت ملامحي انتهت فصول الغياب يا عمرنا ومضي فصل البكاء وانتـهت طقوسه .. تعال يا قدري .. أنت ضوء فصلي السعيد يا عمري.
بلا تردد تشابكت يدي .. ذهبُ استشعرُ دفء ما بعد الصقيع ... تاهت فـي غمار الشعر يداها .. وكنا علي موعد ألا نلتقي .. كذبنا علـي الموعـد بالصدفة والتقينا.

كان المساء يزحف بخطوات وئيدة متثاقلة صـــوب (نـــورس) .. الأمـــواج الغاضبة تتصارع معلنة عن امتزاج أصوات العاصفة العاتية بهزيع الليـــل .. (نورس) همة وثابة وإرادة لا تقاد بزمام .. كانت قد اختلطت لنفسها في ذلك الأصيل الناعس نوعاً من الوحدة إنها ساعات الإختلاء الوجدانـــي بـــالروح لمناجاة الذات واستعادة ذكريات قد أكل منها النسيان الشئ الكثير .. كـــانت الطيور تحلق فوق البحر بأصواتها المجلجلة فتبعث شيئاً من الرعـــب فـــي نفسها ... آه ما أجملها حورية من حواري البحر ضمها الغروب في قصـــة حافلة بالهدوء والصخب صورة ملائكية تطل من ثنايا الجو العالق في السماء وخصلات شعرها المتهدل تنساب علي تلك الوجنتين برفق وبحنـــان فـــتزيد المنظر بهاء وحسناً.

في ذلك المساء مشت (نورس) وطال مشيها كانت تمشـــي تجـــاه الجـــانب الشرقي من البحر بخطوات واثقة. كانت سابقة كشجرة صنوبر متعالية فـــي الفضاء لا يحد من ثناياها شئ ... تزاحمت الأفكـــار فـــي رأســـها ودارت مخيلتها واستحوذت عليها ... كانت تسير علي غير وعي ... وكأن شيئاً من العالم الخارجي يجذبها إلى الضفة الأخرى من البحر. ازدحمت فـــي نفســـها الصور ... وتسابقت إلي سمعها صراخ العويل والصراخ الأتي من بعيد.

لفها الليل بوشاحه وهي لا تزال في حالة لا وعي تمشي وتمشي ... ونفســـها تتوق إلي رائحة الوطن إلي شذى الأريج إلي أشجار الزيتون ... إلي عروس المدائن ... إلي الخليل ... إلي وجه الريفية.

كانت تسابق الليل وتريد أن تتأبط تراب الوطن وتعانقه وتذرف عليه دمـــوع اللوعة التي عانتها بالاغتراب هاهي .. هاهي تقترب من الحدود .. خطـــوة

فاثنتان .. ثم وجدت نفسها تهلل فرحاً .. إنه ستعود بعد قليل إلي بيتها الريفي الملون بأشعة المجد والصمود .. ستقبل الجدران والمدن والنـــاس وخطـى الثوار الأشاوس ستقسم أنها لن تترك أيها الوطن ولكن ما لبثت في لحظـــات أن اصطدمت بصوت قاسٍ يناديها: ابرزي هويتك لم تكن (نورس) قبل ذلـك اليوم تعلم أن العودة إلي بيتهاتطلب منها تأشيرة دخول فتمتمت فــي حــيرة وذهول وقالت بكلمات متقطعة:
ولكنّ جدتي تنتظرني.

ليلة بكت فيها السماء !!!

الغيوم تتلاشى بالدفء الهواء رطب بارد وعامل الأشجار العارية كأنها أشباح البيوت المتلاصقة ضمن الأزقة الضيقة راسمة أشكالا هندسية متعددة. الحي لم يستعد لهذا الشتاء بالتدفئة وشوارعه غير صالحة للسير وتبدو كأنها تعتذر عن الصيف الذي مضّي صيف حارق هد الأعصاب .. الكلاب وحدها تنبح في الطريق .. ظلام موحش يلف دروب الحي وحاراته ..

كنت معتاداً أن أسهر حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل .. أصوات نساء .. زغاريد مخنوقة .. سيارة فارهة .. أصبحتُ كالمتسول إلى أن أرى أكثر .. يا إلهي . إنها (غادة) بنت جيراننا ترسل بثوبها السماوي الشفاف .. وتضع علي وجهها المساحيق بكميات كبيرة، وشعرها ينفرد وينساب حتى يكاد يجب الضوء .. تقف أمام المرآة كأنها تصلي وتنتظر من الله مقابلاً لصلاتها، وجهها منتحب يشرح بالحنان والألفة .. تشتت قوة إرادة مسيطرة عندما تتباهي بمفاتنها .. عدلت عن حلم متابعة دراستها في المرحلة الثانوية بعد وفاة أمها .. زوجة أبيها امرأة شريرة قاسية .. طالما حدثتني والدتي عنها، وعن المعاملة التي تعاملها لغادة وأخواتها.

كنا نسمع صراخها وتكتكاتها المكتومة التي تثير الشفقة .. (غادة) فتاة رقيقة ذات الشعر الكستنائي المتموج والعينين العسليتين المتألقتين حسناً وعمقا فيهما صحو العالم وجماله .. العينان اللتان تحاصران ذاكرتي وخاصة بعد فجيعتها الأبدية بوفاة أمها .. أحببتها بصمت أحياناً وبشوق مجنون راعد ولكن ما العمل؟ إنني لا أملك ثمناً للإجازة العارضة التي أتغيب يومها .. ناداني صوتي المقهور من الداخل بأن أذهب لألقي النظرة الأخيرة .. فاغاهات متقطعة داخل البيت بغوغائية ونبهة شريرة ينتابها التفاؤل لكاتب مزيف تقول

لي زوجة الأب: ما أحببنا أن نخبر أحداً فإن عريس (غادة) متعجل ولديه الكثير من الأعمال وخير البر عاجله .. وأخذت تحدثني عن ذلك الحيزبون أبو عباءة الذي تجاوز الثمانين ما نفع الدراسة؟ سيارة وذهب وأموال كثيرة وتسكن في قصر ماذا تريد أكثر من ذلك؟ بماذا تحلم المرأة منا؟ المرأة لها بيتها وزوجها. قطع حديثنا صوت ذلك الحيزبون. (أطال الله في عمرك يا حماتي وأنا سأتصل بكم) ..

كان مسلوباً يضع ذراعه في ذراعها .. الدقائق ثقيلة قاسية .. حوار العيون كان غنياً وبداخله نداء ملهوف ينزل حتى صميم العظام ... أتذكر بعض ما درسته الزواج هل له علاقة بالميتافيزيقيا؟ القسمة والنصيب فالمال يشتري بماذا سينفعني أفلاطون وسقراط؟ وأنا لا أملك الإرادة الحب التصميم هاهي دورة الزمان التي تغير المفاهيم والقيم زمان رديء وما أحد بقادر على أن يمسك أحداً أو يضبط أحداً فالطمع ضر ما نفع والقناعة كنز لا يفني. فالدنيا دار فناء هكذا كانت تقول ويقطع صمتي صوت أبو عباءة وهو يتأوه من الألم الشديد ويقول: لعنة الله علي التهاب المفاصل أنا بحاجة إلي أن آخذ حقنة ... كانت تتمدد في ذاكرتي كأنها حورية مشعة زاخرة مليئة بالعنفوان بصوت طال عدم استخدامه ... (غادة) تتخلى عن حالة الصمت .. لقد مات الصدق مختنقاً تحت رزم المال سأموت وسأكون عانسة وخادمة بمنزلكم .. هذا ولن أتزوج هذا الرجل الهرم. أحسست بالانفراج .. تحررت من انفعالاتي الكئيبة .. انطلق سقراط المحطم داخلي: ليلعن ثورته راضياً بمصير قلبه وعقله ورافضاً الواقع.

لا لن تبقي في هذا البيت يا (غادة) فمصيرنا واحد.

انتظار غير المنتظر !!

هناك بقرب النافذة، حيث اعتاد أن يجلس كل يوم، يقضي أياماً كلها متشـــابهة ... لا يعرف طعما لها أهي انتظار أو وقوف علي الأطلال أم قتـــل بطـئ للحياة؟

خصلات شعره تداخل بعضها في بعض من فرط الإهمال كما الأم الثكلـــى، والوشاح الأزرق التي أهدته له لا يبرح كتفيه، يعبث بخيوطـــه خيطـــا تلـــو الأخر، وكأنه تعمد ذلك ليخفي كل أثر في حياته.

بعد أن تركته ورحلت .. عيناه تحلقان إلي ما وراء النـــافذة حيـــث المطـــر ينسكب بعنف والرياح تعوي خلف الباب.يكفف دموعه وهو ينظر إلي الموقد القرميدي وفيه آثار لجمر مشتعل يتهيأ للانتفاض منذ أيام وليال كانـــا معـــا يعدان قطرات المطر علي زجاج النافذة .. يضعان الحطب معا في الموقد أما الآن فقد تركته ورحلت .. انتفض فجأة كمن استيقظ من كابوس مزعج.

لم يدر ما يفعل – أيمسح غشاوة الدمع عن عينيه؟ .. أم البخار الذي غطـــى زجاج النافذة؟

نعم .. نعم هي هذا شبحها بين أشجار النخيل .. هي نعم .. يجـــري يفتـــح الباب بسرعة .. حائرًا . حزينًا .. سعيدًا .. تختلط دموعه بقطرات المطـــر علي معطفها ويشتعل الجمر في الموقد.

ألسنة النار !!

لم تكن (زينة) لتدري بأن أرنباً ثلجياً صغيراً سيتسلل إلي حجرتها الدافئة ذلك المساء.

كانت ألسنة اللهب في الموقد تتناطح بحماس بينما أرسلت (زينة) الستائر البنية السميكة وسمحت لجسدها الذي أضناه العناء بسِنة عذبة من النوم.

بدأ الأرنب الثلجي الصغير يتقافز مع أفكارها الواهنة هنا وهناك، وتعلو من حولها هتافات التشجيع من الستائر والشتائم من الأرائك أما الشمعدانات الكريستالية فقد اكتفت كعادتها بالتأمل الفارغ.

لم تقو (زينة) علي الحراك حتى أنها لم ترغب ولو للحظة بفتح جفنيها المسهدين لتري ذلك الأرنب الثلجي الصغير يلطخ بقدميه العاريتين الصغيرتين جدران حجرتها الدافئة بوصمات من الطين حتى أن أفكارها الواهنة تقاصرت تباعاً عن اللحاق بحركة الأرنب بل وفضلت أن ترقد بجوار صاحبتها تنعى ما آلت إليه.

كان الوضع غريبا ولم تُعر (زينة) المنتهية بحكم الزمن انتباها إلى الحشرجة الغريبة والزمجرة الهمجية التي أخذت تشغل حيزاً كبيراً من حجرتها الدافئة.

لم تستطع فقد هدّها الوهن والانحلال أن تفصل تلك الكتلة العضلية الهائلة الوحشية البيضاء التي استحال إليها الأرنب الثلجي الصغير.

كانت الأبواب موصدة محكمة الإغلاق وهي عاجزة وحدها ألسنة اللهب قررت الاستمرار في التناطح بحماس.

ماضون أم آتون؟

لا زلت أنتظر .. أفتش وسط الضباب عن وجه واضح كالشمس .. أغمض عيني كي لا أري إلا ما في داخلي، وأسترجع الصور القديمة أتأملها .. وعندما لا أجد لكِ صورة أهرب إلى المستقبل.

وارسمها لكِ بنفسي .. ومع إنها مبهمة المعالم – لكنها الأصدق حتى الآن – قلبي تحول إلي مقبرة – لأشباح، تدخل إليه أحياء ثم تموت فيه بطعنة مجهولة – وحفار القبور ينتظر، وأنا أيضا أنتظر.

عيون تري في الظلام

تتأمل ساعة الغروب .. من يحس بها في هذا العالم؟ هاهي الشـــمس تلملـم أشعتها الفياضة عن وجه الأرض، لترسم لوحة أرجوانية .. تـأذن بالغيـاب ولتحمل الكائنات الحية علي الهدوء والسكينة.

عصافير الدور تؤدي صلوات المغيب في الحواكير المبعثرة بيــن البيـوت الطينية التي اتخذت من بعضها أعشاشا لها .. فيبدو أن النسيم أصيب بالملل، وراح يغادر أزهار الياسمين. ربما في تلك اللحظة .. لا مـلاذ لـها سـوى اجترار الماضي بكل مآسيه. ولتنبش جراحا لا تندمــل ... فـالحب ملـوث بتفاصيل الحياة اليومية.

هاهي تسرح في عالم فردي، متطوقة ذكرياته، معيدة بناء أجمل ما لديها مـن أشواق، مقنعة نفسها أن سنوات دراستها الجامعية لن تنفعها شيئا في بلدتها .. تهاجمها الذكريات بقوة .. أبواها لا يكفان عن تبادل الشتائم .. خلافـــات لا نهاية لها الهرب من البلد يثير فضيحة .. حاولت معهم كثـــيرا، ولكــن دون جدوي. كانوا يصرون علي عدم تزويجي ممن أحببت، بأنه غريب عنا ولكن هو دوما في تفكيري. الكثيرون أرادوا الارتباط به ولكن كلما ذكـــرت فـــي أحدهم كانت المقارنة في صالح من رفضه أهلي .. عندهـــا أؤجـل فكـرة الزواج.

كانت أمي تشد أزري بكلمات تشجيع وبمزيد من الرقي والتمائم، وصديقـاتي جاملنني. مرآتي هي الوحيدة التي لا تكذب علي .. آهٍ كم تغـيرت .. أبـدو أكبر من سني. آه هذه التجاعيد، ضمور محياها تشي بتقدمها فـي السـن .. ريشة المكياج، أحمر الشفاه، النثريات والمراهم .. إنـــها معركـة خاسـرة،

فالعمر لا يرجع .. تغرق في غيبوبة من الصمت كأنها في حالة خشوع.
ثقل السنين يرهق كاهلها .. تراجع حساباتها، وعساها تتوقف عن النمـــو ..
أسئلة تنطلق لا جواب لها إلى درجة تقنع نفسها فيها أن التهامها لكتب الفلسفة وعلم النفس لا يجلب لها غير الألغاز والشكوك.

بعد منتصف الليل

كان الوقت متأخراً .. أقفل البوابة الخارجية، وعاد إلي غرفته .. أسدل ستائر النافذة .. أراد أن يضفي شيئا من الرومانسية علي جلسته، بحث في أدراجه .. آخر شمعة لديه أضاءها ثبتها أمامه وراح يراقب نورها يتراقص ... كان يحدث أشياء للخيالات في الغرفة علي الجدار .. كانت الأشكال مختلفة تروح وتجئ .. ضحك في نفسه لهذا المنظر .. تنبه علي جرس الهاتف يرن قرب السرير.

رفع السماعة .. جاءه صوتها كانت قد غابت عنه لفترة .. تصارع أنفاسه ونبضات قلبه أخذت تدق بسرعة .. أضعفه نبرة الصوت .. سرت رعشة فى أعماقه .. لا تقولي شيئاً .. شعربالدموع تموج في عينيه .. لم يستطع حبسها ... جلس علي السرير وهو يحمل الهاتف اعتدل في جلسته استجمع شتات نفسه أحس بالشجاعة وبصوت خفيض هامس .. خنقته الدموع قال: كيف حالك؟ جاءه صوتها أنا بخير ماذا عنك؟

صمت ولم يقل شيئا .. لماذا لا تجيب (أردفت تقول)، تلعثم ثم رد باقتضاب وبكلمات متقطعة: لا شئ لا شئ .. لكنني أنا .. إنني لم أنم الليلة الماضية .. أنا بخير.

استمر الحديث ثم سألته معاتبةً حول أمر ما. أعلمته لهجتها ونبرة الصوت .. أخذ يعتذر لها لمس منها قبول اعتذاره .. لفته نشوة فرح وغمرت قلبه أحس بالسعادة .. اطمأنت نفسه .. مر الوقت ودعها .. وضع السماعة في مكانها وهو يشعر بنشوة تغمر كيانه كله، نهض من الفراش نحو المطبخ .. أعد لنفسه فنجان قهوة...

حمله وأتجه إلي الشرفة .. وضعه أمامه وراح ينظر خيوط البخار المتصاعد

تشكل سحابة ترتفع إلي أعلى ... مرت نسمات هواء باردة .. امتــلأ الجــو برائحة القهوة وعبق الأزهار المتصاعد والحديقة أمتصـــه صــدره بنشــوة واستمتاع اتسم .. لا يريد لهذه اللحظات أن تنتهي .. أراح رأسه علي المقعد .. وراح يستعيد الصوت الذي استقر في أعماق ذاكرته، أغمض عينيه قليــلاً ... لكن النوم غلبه فراح في سبات عميق حتى مطلع الفجر.

شفاه تعشق الصمت

عاشت ولكنها ميتة بلا روح .. دموعها تنساب بصمت وأناتها بلا صــــوت، نور الشمس يضايق عينيها وعتمة الليل تدمي سمعها ... ولا شئ يحــاول أن يغير وضعها ..، وضحكات البشر تدهش سمعها .. وأقاصيصهم ترهق نفسها ...، وحدتها تقتلها ألف مرة كل مرة ..، هي سادت الصمت ســـافرت إلـــى عالم الصمت مع عملها أن في خفايا هذا العالم إناس أمضوا أعمارهم ليظلــوا صامتين .. ساخطين علي عالم الحكايا .. عالم الحب والحرية.

كانت تدرك أن بين ثنايا هذا العالم جدران عزلة وجرذاناً هاربة تختبئ تلـــك القلوب المتحرجة وشفاهاً تخترق الصمت وتقتاته تطفئ ظمأهـــــا بـــالصمت تتنفس الصمت والصمت يتنفسها.

تمر عليها الأيام بطيئة ثقيلة كتحرك القارات في المدى الزمنــــي البعيــد .. الحياة هادئة حولها هدوء القبور ... حتى لحظات أحلامها ضــــاعت بيــن أقدام الساعات .. لياليها باردة لكنها صامتةً ... لا يسمع فيـــها الا خطـــوات نسيم الليل الذي سرعان ما يشعر بالبرد فيستعد للانصــــراف فـــي مراكـــب الصمت.

حتى تلك النجوم تتوارى خلف غيوم سوداء بشعة في ليلة غاب فيها القمــــر ولم تبقِ سوى أطرافه تغطيها الغيوم ذاتها .. ماذا جرى لهم وكأنهم يخجلون من النظر إلي وجه تلك المدينة .. لم تكون متمردة بل أرادت أن تملك شـــيئاً أن تهب شيئاً رغم أنه أقل ما يراد إلا أنها لم تملك سوى السراب.

أرادت أن تقابل وجه الشمس أن يصبح لديها قيمة للوقت لكن ماذا بعد الآن؟ وهي قد مزجت في براكن الشقاء ساعة أن تذوب مثل قطعة الثلج فقد سمعت ما لا يعطيها حق البقاء لا تسافري إلى عالم الأحلام تضيع كما تضيع المدن.

لم تعد تطيق بعد الآن .. أصبحت ترفض حياة الظلام لكن أنوار تلك المدينة الهمجية نيران وسهام امطارها جمر حدائقها لا ينبت فيها إلا أشواك والأزهار السوداء غيرها يعيل الموتي .. سكانها بشراسة سكان الغاب .. هاهي رياح اليأس تهب علي شعلة الامل تحاول إطفاءها والوقت يحاول خلسة سرقت زهرة صباها التي لم تكتمل أزهارها بعد.

لا أحد يسمعها هنا حتى ولو حاولت أن تنطق فهم لا يفهمون حروف كلماتهم لم تعد تعلم متي أصبحت بينهم ولكنها الآن بينهم وما حدث حدث.

دموعها جفت لكن أحاسيسها ترفض أن تنعدم لسانها يرفض أن يكون من عشاق ذلك العالم سوف تتكلم وتغني تملأ الدنيا بكلماتها وتقتل الصمت وستحلم بمدينة لا تضيع.

ها قد أفاقت حاولت أن تنطق أن تصرخ أن تطلب النجدة في زمن الاحتماءات بجدران وهمية من البكاء في اللا مكان من مكان لا يفخر البنفسج بالتفتح فيه حاولت وحاولت دون جدوى فهناك يد عملاقة تحبس الهواء .. تغلق فمها .. تقتل الكلمات في داخلها وهي تحاول من جديد بتر حبالها الصوتية لتسير مع تلك الشفاه العاشقة للصمت.

فرح ينقصه الفرح

ودعني الشتاء .. شد علي يدي .. دعوت له ودعا لي.

كان حزينا ممن أجلي .. يقول إن مكوثي في البيت وبدون عمل لقد طـال .. شتاء هذه السنة شهدنى أكثر من أي شتاء قد مضي .. لم أحاوره علي البـاب كثيراً بل دخلت وكان لدىّ ما أقوم به .. أشياء كثيرة يجب أن تتغير . حزمتُ أمتعة الشتاء وبعضاً من تعب ألم بي.

وعدت إليه مسرعا وعلي الباب سلمته أشياءه. يحزنني منظر الوداع .. لكـن عندما يكون في الوداع ولادة ربيع تختلف الأشياء ومسـميـاتها إلا أنـا فـي وداعنا تبادلنا بطاقات الشكر.

قال: كنت قوياً .. عاشقاً وصبوراً.

قلت: كنت غنياً محباً وقوياً.

قال: افرح .. تفاعل .. وجاهد.

قلت: سألقاك كما تحب.

قال: لا تدع الخريف يسقط أوراقك فأنا لا أحب العُري.

قلت: السنديان يتبدل الخريف ويعشق المطر.

قال: انتظرني سأعود.

قلت وداعا وإياك ألا تعود.. فعندي مزيد من رغبة في الفرح وتحقيق شئ ما متي .. دون أن ينظر وراءه .. وقفزت أنا راجعاً.

مباغتة

سقط الجسم وتحول إلى عصفور مكسوٌ بالريش يلعب به طفل صغير يمسكه من فروة رأسه ليرقص في الهواء تراقصا .. مجموعة من القطط تراقب اليد والرأس والعيون تتراقص فربما سقطت وانقضت القطط عليه .. انقضت علي بعضها وتطاير الريش في الهواء.

**

أنظر ملء عينيك

يتيم مدلل .. خليلي الطيب الذي ستكتب علي وريقات الحب أشعاراً أبدية .. الذي ستكتب تحت خيوط قناديل الزيت .. تجلى الغرام الميت إليّ ستكتب في صدر العاصفة المنحنية في الأفق البعيد .. كسراب متنقل عنواناً أجرد علي غلاف العمر .. ألا زلت تكتب وجداً تسولت في العروق الصماء ألا زلت تكتب من حبر الحلم الجاف الحلم الذي لا يتحقق .. لا تفعل أكثر يا خليلي التائه .. في دياليج الخيال.

والجنة لا .. أوراق المحترقة لا تلتهب من جديد.

الشباب المنقرض لا ينبعث من حب التاريخ والحب يا صديقي .. الحب يبني من الحطام.

الحان البراءة !!

يعود بذاكرته إلى تلك الأيام الطفولية اللامسئولة، والرائعة تذكرتكم كان لـون الثلج ناصع البياض ورائعاً، كانت أمه تراقبه في كل شتاء وهو يقف تحـت ذرات الثلج المتساقطة كان يحس دفئاً وحنانا من تلك الحبيبات الآتيـة مـن السماء، وما زال يذكر حوارياته بشجر النخل والزيتون ورمال البحر، مـرت الأيام ومرت السنون كبر وكبر خزان الذكريات .. تساقط الآن أمطار وثلوج لكنه لا يرى فيها ما كان يراه في طفولته .. مدركا بأن أشياء كثيرة تغـيرت لكن ذلك الطفل البريء في داخله ما يزال يذكره بأشـياء وأشـياء تناسـاها الزمان.

هكذا بكي لنجوم القمر !!

جلس بقرب عروسه سعيدا فيما الزغاريد والموسيقي تملأ المكان فجـأة دوى فقاع صوت سرعان ما تتلاشى وساد الصمت .. تـرك عروسـه واقـترب بحذر، وجدها ممدة علي الأرض لا حراك امتقع وجهه وتظاهر باللا مبـالاة لكن عروسه رمقته بنظرة مليئة بالارتياب.

يخامرني ذلك الإحساس الجديد .. تهمس لي روحـــي الخفيفـــة موســـوعة..
أنخرج إلى عالم الأحلام؟ .. ها هو هناك الستار الذي نصبوه لك منذ ولادتك
المشئومة.. لطالما أخمدت ذلك الإحساس. وقتلت تلك الروح فـــي مـــهدها..
لكني الآن اتخذ قراراً جديداً حاسماً .. ألقيت بذلك الكتاب المتخمر بين يـــدي
على المرآة أمامي .
فتناثرت شظاياها هنا و هناك تاركة لوحا خشبيا مهترئا ما لبث أن نفض عن
كاهليه المقوسين غبار السنوات المريرة التي أجبرته على حمل مرآة مزيفـــة
جمعت أشلاء شخصيتي المترامية في أطراف الغرفة وحدت قوى صـــوري
المرسومة على أربعة جدران حولي..استجمعت أنفاسي وتأبطت أمتعتـــي ..
خرجت .. مشيت و مشيت حتى استوقفتني عجوز شمطاء ترتدى ثوباً أسود
تزينه بعض المطرزات الفضية .. رفعت يدهـــا ذات الأنـــامل المدببـــة ..
غرستها في شعرها الاسود الصافي .. رفعت غرتها عن جبينها فكشفت عـن
مقلتين ملتهبتين شرارا متطايراً يغشاه لون داكن. أرسلتها نحوي. تفحصنـــي
بنظرات غير مبالية بل مستهزئة .. كأنما تنتظر إلي فأر صغير أي كومةً من
القمامة.. اجتاحت الأفق .لحظة صمت مرعب . تلتها صواعـــق ورعـــود .
ضحكات تنفجر من أعماقها المريضة تصافح أسنانها الوحشية. ثم تـــترادف
متهاوية لتصدم أذني في صعقة قاتلة.. همست لنفسي : لا يجب ان أعيرهـــا
اهتمامي.. لم أصل إلى نهاية الطريق بعد. واصلت مسيري.. عندهـــا كـــان
غضب الصحراء .. غضب الرمال .. غضب الأرض . وغضبها قد انطلـــق
كالصاعقة من بين حاجبيها المعقوفين كإعصار من شفتيها حيـــن انفضـــت
تجاعيد وجهها المتراكمة.. حين تتطاير اللهب الأسود من مقلتيـــها .. حيـــن

صرخت امسكوه..عذبوه..إقتلوه. اهتزت الأرض تحت أقدامـــي . ووقعــت الواقعة فوق رأسي تاركة بصامتها المذهلة على جسدي المترهل فــها هنــا ركلته وهنا قفز و.....

تابعت مسيري .. بل حاولت متابعته كالثمل أترنح يمنة و يسرة ، وأمــامي تعرض مشاهد مسرح صامت داكن .. يتـــأرجح علـــى أراجيـــح دموعـــي المسترسلة المتطايرة هنا و هناك . خطوة .. خطوتان .. ثلاث خطوات .. آه .. لا خطوات اعتذرت ارجلي و قدمت استقالتها رافضة متابعة العمل فـــي مثل هذه الظروف .. هبط جسدي أرضا لكن الركبتين قذفتا بالجســد بعيــدا عنها . فارتطمت جمجمة لا هي حيةَ ولا هي ميتةَ بالأرض والتصقت أذنـــي بالوحل. ينحدر مبتدءاً العد التنازلي عشرة .. تسعة .. ثمانية..سبع..أســـمع اهتزاز الأرض من جديد .. تقترب خطواتهما مقتحمةَ الأرض.. لكنها هــذه المرة تعد عدا لا أُدرى أهو تصاعديًّا أم تنازليًّا ؟ مع ذلك أنا متأ كـــده أنـــها تتسابق مع عدي ..استجمعت أنفاسي المتراكمة في زاويـــة درى وفجرتـــها كقنبلة في فراغ .. لا تقتربوا مني ابتعدوا.. ابتعدوا .. الا يكفيكم ما فعلتم بي من قبل قليل .. قبل قليل.. قبل قليل.. ؟!   لم يلحظ روحاً كانت تقـــترب منه ..لم يعتد علي ذلك إلا انها همست في أذنه هنيئا لك.. ها أنـــت تســمع لأوّل مرّة بكاء روحك في لحظةَ ولادتها.. ابتسم فقد كتب لها الله الحياة هــذه المرة .. لقد قطعت أشواط سباقك مع نفسك بسرعة فائقة أوصلتك إلـــى ولادة محترفة .. صاحبة صوت مخملي.. تهمس في أذني .. أذني أنا .. تقبل خدي .. تمسك يدي بحنان ورقة عظيمين .. رفعت رأسي فإذا مرآة الجميل يصافح مقلتي .. يتسرب شذاها العبق رئتي .. تلتصق بصماتها بخـــدي .. تتدلـــى شعيراتها الصفراء على كتفى .. مدت يدها ذات الأنامل البيضاء .. اسنادتنى حتى وقفت من جديد على قدمي القت لحظةَ المخاض أرضًا .. وهـــا هـــي

الولادة ترفعني من جديد .. تضع وسطها من أعلى رأسها إلي أخمص قدميها .. فاسترع انتباهي ثوبها الجميل .. ذو اللون الأزرق رائع الصبا .. ســاحر النقاء ..سلبني عقلها هنيهة .. ثم دفعت بيــدي خــارج جيبــي .. أداعــب شعيراتها الصفراء الناعمة المسترسلة إلي كتفيها .. يغمرني إعجاب طفولــي جديد .. ابتسمتُ .. ابتسمتْ كل ملامحها بلا استثناء .. قلتُ لها : أرجوكِ لا تقبليني قبلة الوداع الحمراء .

أخذ طريقه نحو مكتبه بحزم وثبات.. بينما أخذت الأيدي ترتفع له في ثبـــات وانتظام.بعد أن تقع عيون أصحابها علي التاج الذهبي والنجمتين اللتين تحفانه كوصيفتي عروس ، أخذ تلحقان بعروسهما تزينانه وتعطرانها.. بينما أخـــذ يمشي في خيلاء واضعا عينيه علي الباب الخشبي الأبيض الذي يحمل اسـمه بحروف سوداء بارزة.. دخل الغرفة فقابله الجدار بتكشيرة ظهرت فيها بقـــع من الطلاء الذهبي وقع رصاصات المطر و الرطوبة التي تلتهم كل شـيء.. والعفن المستطير الذي تملأ رائحته المكتب . جال ببصره كي يقابلـــه الوجــه الذي نبتت فيه شعيرات قصيرة سوداء و تهدلت عيناه بشـــكل نـــاعس .. و التمعت في مقلتيه نظرة رجاء حارة ...ابتسم في سخرية بل هي شماتة بينمـا انخفضت مؤخرته لتلامس المقعد الجلدي الأسود الوثير .. أخذ يدور يمينـاً و ويساراً.. ملقيا نظرة إحتقار على الكاتب القصير الذي فتح دفـــتره مسـبقاً و أمسك القلم و أخذ يلفه بين أصابعه .. منتظرا بدء الاستجواب ...ما إســمك ؟قفزت هذه الكلمات من حلق الضابط لتسقط علي مكتبــه بفعــل جاذبيـــة لا متناهية التي فرضتها قسوة نظرته .. إرتفعت حلقات التعـــب التـــي تحكــم حصادها حول عيني الرجل ..ناظرة إليه_ إسمي سائق بريء.. نعم يا سائق برىء ..لماذا دهست المواطن المذكور أعلاه .. وأردف فورا هابا من مقعده ليعطي جملته تأثيرا خاصا : لا بد أنك تعمدت ذلك . واللهى العظيم ما لمسته .. أنا وجدته ملقى علي قارعة الطريق ينزف بغزارة .. فـــآثرت أن أنقلـــه للمستشفي بدلاً من أن يموت .تدحرجت دمعة كبيرة شـــاقة طريقـــها عـــبر الحلقات إلي ذقن سائق برىء .. حيث صعب لها المقـــام .- انـــت المتـــهم الأول.و لكني لم أدهسه.. والهي العظيم لم أدهسه هل تنكر أنـــك دهســـته ؟

نظر إلي الكاتب نظرة ذات مغزى وجد القلم نفسه بعدها حرا يا أخي حتـــى لو كان يقول لك (في عرضك) ما كان يجب عليـــك أن تنقلـــه . واكتســب صوته لهجة نصوحة .يا ولدي ليس هناك مكان للإنسانيات و المشاعر فـــي هذا العصر. الإنسان لا يساعد الإنسان كما أن القانون هـــو القـــانون (لـــو حلفوك بحياة أبيك الذي يرقد في قبره ليس هذا الوقت ..وقت الحب و العطف)..لحقت بالدمعة الأولي أخريات كثيرات . التفت إلي الكاتب .. اكتب و قـــد إعترف السائق البريء بانه دهس المواطن المذكور أعلاه . وقد نقله بنفســه إلى المستشفي و أغلق المحضر في ساعته و تاريخه وهوى بقبضتـــه علـــي جرس حقير يحتل ركنا من سطح مكتبه . ليفتح الباب و يطل علـــي عتبتـــه جندي يضرب كعبيه بعضها بقوة .. خذه .. مظلوم واللهى مظلوم .. ظلت الصرخة تسقط في واد سحيق .. و صداها يتردد كعصفور حبيس .. يـــروح و يغدو داخل القطبان الصلعاء و تتكسب حروفها في أذن الضابط حتى غاب الصوت تماما ..شد الضابط قامته و هز كتفه جاعلا رتبتيه تصدران صوتـــاً ما .. نظر إلى الكاتب الذي أغلق الدفتر و هو ينظر إلى الضابط نظرة عتاب .. ظل يكررها بين الفينة و الأخرى .عاود النظر فيما حولـــه .. وصـــرخ الرجل ما زالت تطرق جدران أذنيه . نفض ترابا وهميا كان قد استقر علـــى بزته .. فتح عينيه عن اخرها عندما تذكر ميعاده المضروب مـــع خطيبتـــه الجميلة .. على شاطيء البحر بين أحضان الطبيعة المحيطة بأشجار النخيل في كافتيريا يطل علي الشاطئ مباشرة . ورمى أمره بالانصراف إلى الكاتب الذي إلتقطه بسرعة . أخذ قراره بعدم ركوب سيارته هذه المرة .. و فضـــل الذهاب ماشيا إلي المطعم .. و في أثناء الطريق لمح محلا للـــورود تزيـــن واجهته الألوان الصفراء و الحمراء البنفسجية . دخل إلي المحل إختار منـــه

باقة جميلة تناسب عروسه و أخذ طريقه خارجاً من الحانوت . حالماً ..
لامس كعب حذائه أرضية الشارع .. ترامت إلي مسامعه صرخات أنثوية و أخرى رجولية وكلها تفيد التحذير . عندما التفت بوجهه إلي يسار الشارع ..التقت عيناه مقدمه السيارة المقتربة بسرعة .. لم يستوعبها و لم يراها في حياته كلها كرصاصة تشحن أسنانها لكي تمزق قلب أحدهم لم يستطع أبداً أن يلتفت ليرى رقم السيارة التي أخذت طريقها مبتعدة بسرعة أكبر امتلأ أنفه برائحة الزهور بينما ملأت نكهة الدم فمه .أحس بغثيان شديد في حين أخذ الناس ينفضون عنه .. بدأت الدنيا تنسد أمامه .. لفت عقله دوائر متهدلة ذكرته بشخص لم يستطع أن يربط اسمه بصورته في حين أخذت أنفاسه تأخذ طريقها للهواء الطلق بصعوبة . نطقت شفتاه بالكلمات . بعرضكم بحياة أبيكم .

*

إحتضار

للمرة الأولي نجلس معاً . غريبان ضمهما الوجود .. السنون التـــي مضـــت قيدتها الأحزان بالسلاسل .. لم يكن هناك ما نتحدث فيه ..الصمت هو الـــذي احتل الوقت بيننا و احتل المكان . لم يبق مجال للبكاء .. عيناها المشـــعتان بضياء قديم انطفأتا حين أهطلت أمطار الروح ، للمرة الأولى نجلس معاً فـــي كوخ يبتعد في المسافة أميال عن الهمس و عن الكلام المفخخ .الكـــوخ فـــي الغابة ، الغابة واسعة كآفاق المستحيل نمت بالنسيان و بالحلم التائب علـــي نار تشتعل في قفص أخضر فتحرق كل شئ . إلا القضبان .. الكوخ لجدي و وجدي ليس لأحد .. للمرة الأولى و علي إنفراد نجلس معـــاً ، تمـــوت فينـــا الشهوة التي اشتعلت منذ طفولتنا .. الطفولة الضائعة في رمل التعاسة ..كنـــا نهرب و نلتقي في وادي النخيل أو في الكوخ القديم .وما أن نجلـــس حتـــي تداهمنا وجوه عرفناها و كرهناها .. فنقاد معاً أجلد أنا وتبكي هي .. غالبـــاً ما كانت تمد يدها خلسة تلمس يدي وتبتسم وبعدها تبكي طويلاً ..كانت تبكي .. الوادي الذي جمعنا استطاع أن يقتلنا بكل فرح مســـموم ..اســـتطاعت أن تلقي علينا رداءها الأسود و تعلن الظلام الحب ، الشهوة و أشياء فى الماضي كنت أحسها ولكني أجهلها سألت نفسي كثيرا لماذا هذه هناك الكثير لماذا هـــي ؟ حاولت التخلص من عبء الوهم ولكن الجرح كان يكبر ولا يلتئم الجامعة إشراق في غروب يتناهى إلي الأرض و البحر و الأشياء المنفصلـــــة عـــن الشمس .. الجامعة سرقتني منها في طرق المدن مشيت ..الغربة أنا و العزل أنا .. وكل أحلامي .. كانت تعود إلي الماضي فتروي عطشاً ذاقته سنينا من المر و مازالت ..لماذا هي ؟ في الجامعة آلاف الوجوه تقترب مني تحـــادثني

تعبث بأشيائي الصغيرة ولا شيء يتغير .. تبتعد الوجوه ينفرد و أنـــا هنـــا ولست هنا .. الوطن الذي إبتدأ في صدري كبيراً أموت أنا و يعيش الوطـــن ..لماذا الموت لي في وطن يحيا فيَّ ..الفتاة التي أحببتها هي بجـ نبي الان .. وحيدان التقينا و لا شيء إلا الصمت يجمعنا .. العيون تسأل و تذهب بعيـــداً في السؤال .. انظر إلي العينين الشمس تشع من ظلمة تفوح منـــها رائحـــة الحزن و الإحتراق و النار تلتهم أخشاب الروح . كل ما قالته كـــان مكتوبـــاً عليها ألا تعيش حتي أوهام الفرح باتت دما تنزف من جرح القلب .. سنوات مرت وأنا في الجامعة تزوجتْ هي من رجل مريض متعب أكلته الســـنون و عاث به خراباً ..رأيته مرة واحدة ..بوجهه الأصفر.. بعينيـــه الجـــاحظتين . وعنقه الطويل المترتخي..كان يعلم بحبي لها ..ابتسم بامتعاض قاتلي ..رأيته مرة واحدة و لكن بعد أن قتلني ما كنت لأفعل شيئا كان برفقتـــــها .. بكـــت عيناها بصمت و انفجر الحزن في صدري .. الحزن القديم كالأزل .. عندما لا يجد المرء ما يفعله يفكر في أي شيء كان يشغله عن الفراغ و لو قليـــــلا ..زوجها مات ووادي النخيل الرث إنتحر علي ضفتي بحر المدن ..الأمـــواج المذهلة و المثقلة بخطيئة الوقت غـــيرت وجـــه الأجـــداد وغســـلت أنـــامل الجسد..وبقي القلب متسخاً ..أعادني الحلم للبيادر و للشـــجر الحزيـــن أبـــداً ..يخطو إلي سارية الثمار وأنا أي ثمار أمشى اليها ..لم تغادرنى الطفولـــــة ..الليل يسكن في دمي . والتناقض يعيشني ..بلهاء هي الثواني وتحتجزنـــــي ..هنا بيتها ينتصب في وجهي ..بعيدا عن التفكير ..أطرق نافذتها ..طفلة في حدائق اللاشيء تشع علي بعينيها الصغيرتين الدافئتين .. تهمس عبر الزجاج الفاصل بين العدم و العودة ..الزجاج ينكسر في لغة الدهشة و اقتلاعي مـــن مرامي ؟ لا أعلم أريدك .. الآن تنهض من رمادك .. لا تبأً للزمـــــن الـــذي "نحنُ الزمن" إذاً تباً لنا ..ولكن المهم ..المهم أن يعد ..متأخرا جداً . أنــــالك

..لنحضر معاً غداً في آخر شاطئ وادي النخيل أنتظرك. لا شيء يقيدنا الآن .. لا شيء ..وتغلق شباكها وانسل في الليل ..جسدي بـارد يقتلنـي ..هـذا الزمان ليس لي ..وحيداً أمضيت حياتي وحيداً أصارع موتي ..وأنتظر فـي آخر الوادي أنكسار النعش البشري.. وصعود الكـدر أي الحسـن المكفـن بالخوف ..ألمح جسدها يقبل بتساقط أعضائه ..عضوا عضوا .. حتي القلـب ارتمي امام القدمين .. فداسته بلا خشية ..تقترب ..أمسك يديها .. تفلتـها .. لماذا في الماضي لم يكن ليلنا أسود.. أمشي هي بجانبي صماء ..بكمـاء ..لا تنظر لشيء ..غريبة جاءت من زمن .و ماتت في زمنه..تسأل إلي أيـن ؟ إلي كوخ جدي في الغابة (الكوخ .الغابة.جدك)نعم الماضي .هل أنت بخـير ؟ (الخير..الشر..أنا أنت الماضي)وفي الكوخ نجلس معاً وحيدين..الجسـدان خُرق بالية ، والعيون المسمرة في الجمر ..كل شـيء يشـتعل ..إلا نحـن باردين كنا ..صامتين ..مهزومين *

أوراق غريب !!

الورقة الأولى

نشر الظلام أوراقه في كل مكان، اختفت النجوم من السطور، حاكت الأيـــام ثوب الحداد .. وألبسته لليالي المقمرة .. ليل طويل ما له نهاية .. هكذا هـــي الغربة .. ما أقسى أن يكون الإنسان غريباً في بلده .. يمشي ونظرات ناريـــة ترمقه .. تشنقه ألف مرة .. أبدو لهم .. أنا ليس ناكراً ولن أكون .. فيا زمن البيوت بلا أحجار .. يا زمن الربيع بلا أزهار .. يا زمن الدمع والسلاســـل والصمت القاتل .. ها هي الحرية تشنق باسم الجنون .. ها هيَ أبجديتنا تمحى باسم القانون .. وضعوا علامات استفهام .. رسموا صـــورة واهيـــة باهتـــة ووقعوا تحتها "غريب" .

الورقة الثانية

لا أحد يريد أن يسمعني لا أحد .. يعتقدون أن كلمـــاتي عـــابرة .. مجـــرد حروف متداعية بين سطور الدفتر .. لم يعلموا أن حروفي هي دموع ســـهر .. فراشات أمل فعيونهم المحدقة بي تكاد تكون معاول لهدم آمالي .. لأنـــي أيقظت فيهم ذكريات هزيمة رموها قارورة في بحر النســـيان .. كبريائـــهم المزعوم سقط صريعاً أمام كلماتي .. لكنني لن أستسلم حتى وإن بقيت غريباً في عالم الجنون .. حتى وإن بقيت سجين الكلمات .. سأظل أرقص مع آنات كلماتي وصرخات أضلعي.

الحقيبة !!!

جالت بعينيها هذا الليل الصيفي الهادئ هدوء المقابر .. تعلقت بنجم مشع تأملته برجاء .. قبلت إخواتها وأمها وأقاربها مودعة تغالب دمعاً .. هو قلق وخوف من غد مجهول .. دخلت غرفتها تعد حقيبة السفر بعد أن أيقنت أنه لا مناص من ذلك حيث أجلت القيام بهذه المهمة حتى آخر الوقت وكأنها بانتظار معجزة تمنحها الشجاعة في الرمق الأخير .. فتقاوم الرحيل، حاولت تجميع شتات ذهنها تفكر فيما تحتاجه في رحلتها إلى بيت الزوجية .. حاولت ها هو ينتظرني في البر الآخر يشير كي أصعد عربة حياته .. أقوم بذلك بتثاقل .. لا سوف أكفُ سوف أنجح في نسيان مهنة الحلم .. نظرت إلى الحقيبة المنتظرة فاتحة فاها .. لم يعد هناك وقت للتردد احسمي أمرك! جمعت كل ما يملأ قلبها من توجسات كدستها في الحقيبة لم تتسع .. أحضرت حقائب أخري امتلأت .. نظرت حولها وجدت، غرفتها التي أحبت وشهدت مراحل العمر قد ازدحمت بحقائب السفر .. دخلت أمها تسألها إن كانت تحتاج إلى مساعدة ... ابتسمت لهذه الدعابة وشكرتها سمعت أمها لأول مرة تقول: "الله يرضي عليكِ يا ابنتي ها أنت تنعمين برضا أمك والآخرين .. أطفأت المصباح الصغير بجانب سريرها واستقلت متمنيةً ليلاً طويلاً .. أغمضت عينيها. أرخت يديها إلى جانب جسدها .. استعدت النوم عبثاً ها هي صورة من تحب تهاجمها وصوته يخترق رأسها .. منت نفسها ربما يكون زواجاً سعيداً همست: "نعم سوف أنجح في نسيان الحب لو أحبني هذا الزوج فسوف تلفني الأفراح وأنسي الحب وإن أساء إليّ فسوف تطحنني الأحزان حتى يصبح حزن فراق الحبيب أصغرها" .. لم يكن نوماً كما أنه لم يكن صحواً .. كان كغيبوبة الألم حين ينمو في زمن الأرق .. فيملأ مسامات

الجسم ويملأ المحيط والهواء الذي تتنفسه .. تذكرت حكمة أمــها "المكتــوب علي الجبين لازم تشوفوا العين" .. توقعت الموت .. توقع الجنون .. توقعــت النسيان .. لكنها لن تتوقع شيئاً آخر.

الحقيقة اسمها إسرا ......!!

كنت يوما أرقب رحيل رماح الشمس من أحضان البحر .. الغروب يداعب النخيل ببطء .. ظننت بها علة .. تسمرت أنامل أقدامها علي ضفاف البحر حسبتها تحتسي هذا الماء المالح أو تغسل صفحة وجهها الحزين لم يدر بخلدي أنها تبكي ويخالط عينيها ماء الشاطئ .. حتى سمعت أنيناً كصوت الناي .. حلقت طيور النورس وراحت تحدثها بصمت العشاق .. رحلت طيور النورس وحدث هواء مثل صمت المقابر مضت تناجي الرمال الناعمة، تبني بيتاً جميلاً وأبراجاً أجمل وغصناً ناعما نحيلاً .. ترسم علي الرمال بأنامل يدها جنديا ودبابة، تمتد أصابع البحر وتختلس مما تبني فتبكي .. تمسح وجهها الدموع الصغيرة بيد كلها رمل .. ركضت تجمع القواقع واستوقفها أمواج البحر .. فنظرت إلي وجها وضحكت .. جمعت القواقع القوية وجعلتها تحضن البرج المشيد بحب ضلوعها وماء عيونها .. اكتمل البناء وهاهي تدشن فرحتها بالركض تارة والبكاء تارة .. جمعت بقايا الزجاج وجعلت منها حصنا وسورا منيعا سحبت قدمي إليها .. قلت لها: أنت بحق فنانة !! جميلة هي أبراجك .. قالت وكل كبرياء العالم في ثغرها نعم جميلة ولا أظن أحدا يملك مثلها قط .. هذه مدرستي وبها تعلمت أن أكون طيبة مهذبة .. وهذا مسجد الحي كنا أنا وجدي نذهب إليه كل يوم وهذه الدار هي بيتي .. هنا لعبت أختي وسقطت .. هنا أكلت . وهنا .. وهذه الأبراج طالما لعبت تحت ظلالها ولطالما داعبت أحضان الزهور أنفي .. هذه يا سيدي دولتي الجريحة ووطني المغتصب .. وهذا غصن داسته الدبابة قبل الجندي .. حينما احتلت بلدي كنت هنا .. لم أتمني أن أملك حفنة من ترابها .. ترابا من المسجد وجعلت تردد "أحبها" غدا إن شاء الله ستعود دولتي .. لقد أنبأني

أبي، ولقد حملت الخبر اليوم طيور النورس .. وتمر الأيام ويصبـــح الحلــم حقيقة أتذكر تلك الطفلة الجميلة التي كانت تلهو علـــي الشـــاطئ الأمنيـــات وحفيف النخيل لم تنسي أبدا ما ذكره لها أبوها .. تـــري مـــاذا تفعـــل الآن هناك؟! وكيف شاهدت تلك الرمال الحقيقة لأول مرة بعد اغتصـــاب وطنـــها الذي مازال مغتصباً.

شجرة النخيل !!

ما استطاعت تنسي سناء النسيان .. فعل إرادي أكثر الأحيان .. لم تحـــاول هي إلا في النادر .. هذا النادر بقي غير كاف .. حين كانت تحاول تتذكـــر أكثر .. تعمق ذكرياتها .. تجذرها وبها تتجذر .. تصبح ذكرياتها حياة لـــها جديدة .. تحيا بماضيها .. ذات الحاضر سراباً جعلت الغد وهما تشـــرنقت .

كانت سناء معجبة بوائل .. كان وائل يوقع الصدف ليتلاقيا.. كثرت الصدف .. أخصبا اللقاءات .. سارا حديث الحي .. بيت خميـــس علـــي خصومـــة تاريخية مع بيت وائل .. الدعاوي قديمة بينهما في الحاكم .. ما تنتهي دعـوة حتى تبدأ أخرى .. من كثر وأحدهما للأخر .. فسناء من أفضل الفتيـــات .. ثقافة وممارسة للقيم .. وبسحر عجيب تصالح البيتان .. تمت التنـــازلات .. سحبت الدعاوي . أقلع وائل وسناء .. ببيت جديد .. زقزق في بيتهما مـــلاك .. تقمص الفرح البيت .. ما استطاعت تنسي سناء .. لا تريد .. من سـنوات أربع .. قتل لصوص غرباء وائلها علي عتبة المنزل .. تغمض عينيـــها لا تريد تري كيف ... لا تريد تتذكر كيف .. تصرخ لا تتهاوي .. تغمر أبنـــها بحنان عذب .. ودفء خاص .. حظك من السماء يا حبيبتي .. رحيلك مـــع خالك إلي القنطرة أنقذك .. ليتنا قبلنا النصيحة .. طمأنونا "قـــال خـــالك .. سآخذ الصبي .. تعالوا لا تأمنوا .. أخبر منكم أنا .. اقنعوا يا جماعـــة فمـــا حتى .. من سنواتها الأربع هذى .. وسناء تواجه "خطأ قدرا بشراً" .. تربـــح المواجهة مع البشر أما أمام الحظ والقدر فلا تنهزم لكنها لا تهزم .. تكيفـــهما وتنجو .. وحيدة تواجه تنجو .. جيدة تعيش .. عملها بين مكان أخر . رفـــع رأسها بين الناس الكرامة غالية .. لكنها ما درت تؤمن عملاً ثابتـــاً .. فـــي شركة .. مصرف .. مؤسسة . صبية وبهية .. وتهرب حاول كثيرون مـــا

لانت .. شمخت بأنفتها لا حب .. لا زواج .. لا.رغبات .. قال لها محسن .. ترتاحين من العمل .. أجابته لست متعبة .. قال: ترتاحين من هم ولدك أكون أباً له .. قالت: الولد ليس هماً . والده ليس غائباً .. إتكأ رأسه حزيناً .. محسن يحبها . وقال لها "لبيب" أحميك .. وقالت له: إيماني يحميني عزة نفسي .. قال: تبدئين من جديد .. سألته: من أخبرك أني انتهيت ؟؟ ذهب لبيب موجعا صادقاً .. في ألسنة الخامسة قالت لها شيماء مديرة المدرسة نعلم ابنك عندنا يا ابنتي وعندنا تعملين .. فرحت سناء .. عميقا نامت ليل ذاك .. زارها وائل باسما .. مشتاق .. أنا أكثر .. ما زلت تحملين اسمي؟؟ لا اسم سواه .. ما زلت تحبيني؟؟ أما تستاهل؟ نادمة .. التعيس يندم .. تعرف أنت أنك غبطتي .. قديستي أنت .. أنت ملاكي .. في الصباح بنشوة ملأى أحلاما انطلقت .. كانت المدرسة قريبة .. ما استطاعت تنهي حلمها في الطريق .. جعلت أبنها في الحديقة يلعب مع الأزهار والفراشات القليلة والأولاد .. كانت ما تزال تكمل حلمها ..دخلت مكتبها رأته بألوان مشرقة مريحة .. أثاثه أنيق بسيط .. نظيف .. كانت ما تزال تكمل حلمها .. طاولة خشبية صفراء .. تليفون أخضر .. كرسي وثير تدور .. نباتات وأزهار خضراء جميلة .. نافذة واسعة تشرق علي الملعب .. إلا أنها لمحت فوق النافذة خيوط عنكبوت .. كانت لا تزال تكمل حلمها .. ركزت كرسيًّا صعدت .. كانت ما تزال تكمل حلمها تطاولت تزيل خيوط العنكبوت .. بدى حشرة ميتة فيها وكانت لا تزال تكمل حلمها .. هوت علي أرض الملعب .. ما نبضت .. سال دم كثير إلا أنها استمرت تكمل .. بعد يومين توافد الجميع .. لكن واحدا ظل يتذكر روحا وجسا .. بقعة دم في أرض الملعب .. تحت شباك سناء .. يدوس فوقها الألعاب .. يقعون .. كانوا يعثرون بالحلم المستمر التدفق .. في آخر العام نبتت في المكان شجرة نخيل تحلم..

الغرفة

إنهمر المطر بغزارة فوق رؤوسنا ونن نحمل القرميد بأيدينا المحمرة .. كان بارداً لكن فرحتنا جعلته دافئاً .. الصغار يتسابقون في صعود السلم حـــاملين حجارة تكبر أجسادهم النحيلة .. البسمة ترتسم علي وجوههم المبتلة بقطرات المطر .. الفتيات والفتيان تعاونوا لحمل الأسمنت والقرميد .. لـــري عيـــون الجيران ترقبنا من خلف الأبواب .. وقفـــت أتـــأمل الغرفـــة التـــي حمتنـــا واحتضنتنا وهي تتهدم لتعلو جدران مرتفعة بدلاً من تلك الجدران القصيرة .. لم أستطع فعل أي شئ .. لم أستطع إخراس صوت المطارق الكبيرة وهـــي تهدم مصاطب حفرة فوقها أقدام وأقدام .. فقفزت ولعبت فوقها ..فـــي كـــل ضربة كانت تفتت أيامي مع تلك الغرفة ذات الجدران القصيرة.أخذت أراقب العامل وهو يلملم الحجارة المتكسرة .. شعرت وكأنما يؤلم ذكريـــاتي بيديـــه القويتين .. عندها اندفعت بقوة فأرتعدت .. بدأ يراقبنـــي وأنـــا أمـــد يـــدي المرتعشة .. لم أستطع فعل أي شئ .. لم استطع حمـــل حتـــى الفتـــات .. شعرت بخيانة كبيرة .. أيعقل أن أرمي بأيامي؟ لا أستطيع فعل ذلك .. بدأت أتحس الحجارة المرمية فوق الأرض .. في كل حجر تتلألأ ذكـــرى قديمـــة تخبو بدموع أسقطها فوقها .. لاحت بين الأســـمنت المـــتراكم خطـــوط اللعبـــة المرسومة علي أرضها .. وبدأ صوت قفزاتنا يطرب أسماعي .. لم أســـتطع إيقافها رغم ابتعادي عن المكان .. إلا أنني مازلت ألعب واقفـــز .. بـــدأت أراقبهم وهم يضعون الحجارة فوق بعضها البعض . شعرت وكأنما يبنـــون قبراً لذكريات الطفولة .. حاولت أن أتركهم وحدهم .. لكننـــي لـــم أســـتطع فصوت عتابها المخنوق واستغاثتها جعلني أتسمر في مكاني لا أقوي علـــي النظر إليهم واصطفت الأخشاب لتآلف وتصنع سقفاً لغرفة كانت ملعباً واسعاً

يحتضننا ويبعد عبثنا عن أمتعبة لكن ملعبنا لم يبعد عبثنا عن الجيران ونحن نتسلق جدرانه ونمطر أولاده بمياه غزيرة .. الفرح بالسرير الدافئ .. الذي يريح ضلوعي من أرض قاسية ويشفي جسدي من صفعات اخوتي .. الفرح بجدران ناعمة لامعة ملونة .. كل هذا لا يمحو حزني وأنا أري عريشة طفولتي تقطع وترمي بين الأحجار المتكسرة ليرتفع مكانها سقف من الأسمنت القاتم يخنق حكايات جدي عن العفاريت والجان في الأمسيات الصيفية تحت شجرة الزيتون الهرمة العتيقة .. وشجرة النخيل الباسقة النضيدة .. ويصد ضحكاتنا ونحن ننطلق بحجارة صغيرة علي بيت الجيران .. ثم نحتمي بجدرانها القصيرة لنختبئ من فعلتنا تلك .. بدأت أتأمل يد العامل القوية تغلق الحفر الصغيرة بدوائر الأسمنت التي ملأت الجدران .. تلك الحفر التي تعبت أيدينا النحيلة في دفنها . ليتنا كنا نملك يداً مثل يده لحفرنا حفرا أكبر من تلك التي أغلقها ومحا الكلمات المكتوبة علي الجدار بمياه كثيرة .. بدأ أزيز يخترق سمعي كأنما تلك الكلمات تستغيث كانت مكتوبة بالفحم الأسود لتغيظ الجيران .. كلمات قاسية .. لكن كتابتها مريحة وممتعة .. لقد ارتفعت الجدران وانتهي الأمر .. ولم يعد هناك مكان لجلوس تلك القطة وقد أغمضت عينيها والهواء يتغلغل في فرائها الأبيض الطويل .. اقتلعت تلك المسامير التي دققناها لنعلق عليها لعبنا وأشياءنا .. كل هذا اصبح ذكري عابرة .. قد نتذكرها غداً .. وقد ننساها حينما تختفي صديقة الطفولة عن أعيننا .. كل هذا حدث من أجل رفع سقف من الأسمنت لا حياة فيه ولا ذكريات بل مزيداً من خنق الخيال وقتل الطفولة لنكون كما يقول الناس كباراً متزنين بعيدا عن" الولدنة" كما يقول جدي"

نداء من الذاكرة !!

هكذا كان عليه أن يستقبل كل صباح في تلك الأرض الممتدة بعيداً عن وادي العريش .. حوالي ثلاثة أو أربعة أميال ليقضي يوماً من العمل الشاق كأنه والشمس علي ميعاد .. يستقبلها عندما تشرق ويودعها عندما تحتجب خلف تلك التلة التي تفصلها عن الوادي .. هو الآن وقد مالت الشمس إلي المغيب يبدأ بجمع تلك الأكوام المتناثرة من القش هنا وهناك .. بدأ الجميع يتركون مزارعهم عائدين إلي بيوتهم بعد ذلك اليوم الطويل .. حسناً لحظات وينتهي وبعدها سيمضي كغيره من الناس .. يحث الخطأ .. يعمل بجد أكبر .. لكن الإعياء بدأ ينال منه كما بدأ الظلام يخالط كاللص بقايا ضوء النهار شيئاً .. فشيئاً تلك التلة البعيدة .. وقد ضمته ظلالها .. لم تع تبدو الأشجار سوداء .. نسمات خفيفة ترحك ذلك الزرع المستقصب حوله .. الطريق طويل إلي الوادي .. لا شك أن أهله ستنتابهم نوبات من القلق لتأخره في العودة من تلك اللحظات نظر إلي الوادي العميق . واد غريب بين التلة والهضبة المترفعة قليلاً جنوباً .. لم يعد إلا كوة للظلام .. لم نعد منم ذلك الطريق التي تمر من ذلك الوادي .. سنسلك ذلك الطريق المار من أعلي الهضبة .. هكذا كان يفكر .. بدأ مشواره الويل تاركا تلك الحقول بلونها الأبيض وراءه .. كلما هبت نسمة جثت الزروع في الحقول المتناثرة علي جانبي الطريق .. سمع حفيف السنابل وكأ سمع الصوت في زرعه يودعه علي أمل اللقاء في صباح اليوم التالي .. الطريق مملة وصعبة .. حث دابته علي المسير .. صعوبة الطريق قد نالت منها .. أضف إلي ذلك تلك القنوات العميقة التي صنعتها المياه علي جانبي الطريق .. لن نتأخر بعد الآن حتى ولو لم نجمع القش بعد حصاده .. فقد تأخرنا كثيراً ثم إن عليَّ أن أستذكر دروسي .. فالامتحان علي

الأبواب .. ثلاثة أيام فقط .. ويبدأ الامتحان .. إبتسم قائلاً: "من الأفضـــل ألا أفكر في ذلك كله" .. ها هما الآن يمران بجوار تلك التلة فوق أعلي الهضبــة .. سكون رهيب .. صوت ريح خفيفة .. التلة بلونها الأسود .. لون داكن .. حوله شئ من البياض الممتد .. يعود ليفكر في الامتحان .. والقلق يســـيطر عليه .. "سبحان الله" في مثل هذا الوقت من السنة .. قبل الامتحان علينـــا أن ننشغل بهذا العمل الصعب ..يترك أفكاره تلك ليعـــود ليحـــث دابتـــه علـــي المسير.

شمس وسط الظلام !!

داعبت النسائم الباردة الجبلية وجه الشيخ أبو محمد فأيقظته من غفوة لذيذة .. كان يحظى بها تحت شجرة تتوسط أرضه .

بعد أن تناول كسرة خبز مع شئ من الجبن والبصل وجرعة ماء.

أستلقي في الظل متعباً بعد يوم شاق أمضاه في تقليب التربة حـــول أشـــجار الزيتون وضع رواكيزاً لبعض أشجار الخوخ التي لم يشتد عودها بعد .. أبــو محمد شيخ في العقد الخامس من العمر .. رجل سقاه الريح العافية والقـــوة .. طويل القامة .. شديد الزند .. هو من النوع الذي تحبه من أول مرة تلقـــاه .. في لونه الفاحم وسروال الأبيض .. وكوفيته الطوبية التي تزيـــن رأســـه .. وتعكس علي وجهه صفحة حمراء حقيقية كتلك التي في غروب الشمس.

لأبي محمد أرض يفلحها فيها زيتون وشمام وخوخ . ومساحات زرعها قمحاً وشعيراً. له ابن وحيد هو محمد أنجبته أمه بعد نزال حمي وطيسه مع الحيـــله .. غالبتها بالحمي سلم لصبي ليعيش ويتعلم حتى المرحلة الجامعية.

بعدها أمضي ست سنوات ينتظرالوظيفة .. طرق خلالها أبـــواب الوظـــائف فلفظته بعيداً .. تدحرج بين العديد منها فلم يصلح باصطياد واحدة.. عـــرض عليه أبو العمل في الأرض .. في الـــزرع والحصـــاد .. رفـــض متذرعـــا بالشهادة ومجال التخصص .. ضاق بالحياة وضاقت به حتى قرر الـــهجرة .. تصدى له أبوه فلم يغير ما في رأسه .. غاب شهوراً .. بعدها علم الشـــيخ أن ابنه سافر إلي دولة أجنبية بعيدة.

ومضي ثلاث سنين علي هجرة محمد .. لان خلالها قلب الرجل وارتد عـــن غضبه علي ابنه .. كانت أخبار محمد فيـــها شـــحيحة لا منقطعـــة إلا مـــن رسالتين غائمتين .. تغيرت فيها نبرة الأصالة إلي سذاجة ورتابـــة وكأنـــهما بَعثهما دون رغبة.

حاول الشيخ أن يجد لابنه عنواناً فما استطاع .. رضخ للأمر الواقع وعـــاد مزاولة أعمال الأرض من زرع وحصاد حتى كانت الواقعة .. في صبـــاح يوم من أيام البيادر حيث البيادر تزدهي وتتحلى بحلل ذهبية أكوام من القمـح مكومة هنا وهناك .. تنتظر الدراسة في ذلك اليوم كان دور الشيخ ليـــدرس قمحه وهذا ما كان اجتمع عاملان مع الشيخ يساعدانه في إدخال القمح مـــن أعلي الدراسة وآخرون يهتمون بوضع أكياس في أسفلها لتستقبل القمح حبوبا تتناثر كأنها شلال ينحدر عالية وآخرون يتعاونون في وضع شـــادر واسـع ليحوي التبن الخارج من الآلة حتى تذروه الرياح فينتشر في الفضاء وعلـــي سطح التربة .. جد الشيخ يومها وتعب وهو يجمع أكواماً من سبلات القمـــح ليضعها في فم الدراسة. لتقضمها وتفرمها تحت أسنان معدنية تلتف وتصطك كأنها حوافر خيل في طريق صخري .. دخل الكثير من غبار التبن في عيني الرجل فأدمعتها وأساءة رؤيتها .. في أثناء اعتلاله كوم القمح فلم يبال وأخذ يدفع برجله بشدة كومة قمح يدخلها في فم الدراسة .. فانزلقت رجلـــه إلـــي الداخل والتهمتها الدراسة بأسنانها الحديدية .. فصرخ صرخة أوقف الدم فـــي وجوه الجميع وصعدت جبلاً في الأفق .. وصرخة أخري .. فأوقفوا عمـــل الدراسة ولكن بعد أن كانت قد قضمت رجله وأسالت دماء حالت ذهبية القمح إلي حمرة في حمرة الأفق بمنظر يقشعر له البدن.

نقل الشيخ إلي المستشفي فبتروا له بقايا رجله وأبدلوها إياها برجل بلاستيكية .. كان منظرها يمزق قلب الرجل الذي لـــم تـــذرف دموعـــه آلاف الأحـــوال والسنون.

مرت الأيام صعبة علي الرجل ضاق بها .. الوحـــدة القاتلـــة .. وأحاســـيس العجز .. كانت نظرات من حوله كأنها خناجر تنغرس فـــي قلبـــه وجســـده وأحشائه .. كان يبصر نظرات الحزن من حوله كأنها سم قاتل يتسرب إلـــي

جسده المنهك. ضجر الرجل بالوحدة والجلوس إلي الجدار الرطب في غرفته أو الجلوس أمام بعض دكاكين الحي .. وتبادل النميمة مع الرجـــال الذيـن شربت الحياة آخر قطرات همتهم وعزمهم .. وباتوا ينتظرون الموت ضجـو ومل وتمني لو أن ولده محمداً إلي جانبه. أو أن زوجة حنونة يستظل بظـل عطفها .. تحنو عليه ويحنــو عليـها .. ويتسـاندان ليمضيـا فـي دروب الحياة.قرر الرجل في صباح ذات يوم أن يخرج إلي أرضه التـي أصبحـت بورا فالناس باع أراضيها وهجت الزراعة إلي الوظائف وكأنهم يـأبون إلا الأستجداء .. حمل معولاً مع أول حبات الندي مسرعاً قدر مـا يسـتطيع ! ليلحق بقطرات الندي التي تبلل وجه الأرض وورقات الشجر قبل أن ترشفها أشعة الشمس.

أحس الرجل كأن حيوية عظيمة دبت في أوصاله عندما وطئت رجله الأرض فأنتفض بحيوية غريبة .. وأخذ يضرب الأرض بفأسه ضربة أفرغ فيها تعب السنين وضربة تفل فيها علي الزمن الرديء وضربة ثالثة قوية.. أفرغـت بعضاً من الشوق لأبنه المهاجر .. ضرب الرجل ضربات عديدة في الأرض حتى سالت قطرات العرق علي جبينه ـ كأنها حبات نـوت فأستقر بعضـها في حاجبيه الكثيفتين وأخري وجدت لنفسها مسار في أغوار تجـاعيد وجـه الرجل .. استقرت علي أخر ذقنه متذبذبة بين السقوط والبقاء.

اعترت الرجل حالة غريبة نظر فيها بعيون مفتوحة مشدودة عن آخرهـا إلـى سفوح الجبال العالية الملتحمة .. قممها بعنان السماء.

خالها مساحات من سنابل القمح الذهبية .. تتموج في اضطراب أمامه كأنـها صفحة للُجة بحر آخر على وجهه النسائم.

التف التفافة كاملة ، فإذا به وجها لوجه مع شجرة النخيل العتيقة التي تتـاهز المائتي عام من الحياة سامية عالية ممتدة الأطراف والسعف إلي أعلي.

وفي أحضان جزعها وسعفها سرب من طير الحسون الجبلي تغرب برتابة كأنها أوركسترا تعزف سيمفونية عزبة يرتد صداها في الأفق .. وراءه علي شكل حفيف تعزف ملائكة الريح بأصابعها علي سبلات القمح .. ملأ الجو عليه أصوات طرقت أذنه .. أصوات اصطدم الفئوس بالصخور أثناء الحفر .. خالطها أصوات جذ القمح حزما بالمناجل .. دارت به الأصوات وعيونه محدقة في السماء الزرقاء الصافية.

ارتد القهقرة بضع خطوات أمسك برأسه المتعب بين يديه وسار يلتجئ إلي ظلال النخلة القديمة .. جلس في الظل وأسند ظهره إلي جذع النخلة .. أرسل نظرة بعيدة إلي الأفق البعيد تنهدة حارة معذبة دامية اسند رأس إلي الجذع خلفه وأغمض عينيه.

هبت نسائم باردة كثيرة .. أذن المغرب .. غرد عصفور جرئ قبل أن يختفي في الظلام وأصرت صراصير الليل بكل جراءة ...

لم يذكر أحد أن أبا محمد عاد إلي الحي .. انتشر خبر اختفائه كالنار في الهشيم.

قرروا البحث عنه في الصباح بحثوا كثيرا .. وجدوه جالسا إلي جذع الشجرة .. وقد رحلت روحه إلي السماء .. حاولوا تحريكه فوجوده ملتصقا بجذع الشجرة .. حاولوا حمله فوجدوه ملتصقا بالأرض .. تخاله مكمن قريب أو بعيد جزءاً يصل الشجرة بالأرض.

امرأة تعزف علي الأسلاك الشائكة!!

مرت بيدها علي مسامات وجهها. الزمان الهارب ترك آثاره. ألقت بجسدها الواهن علي طرف أريكة، الساعة تزحف نحو الثانية عشر ليلا، فجر يتسربل، أغصان وقت .. الوساوس تعبث بهذا الرأس المتخم .. كثيراً ما حاول إقناعها بأن المسألة (قسمة ونصيب) حسمها سلباً أو إيجابياً هب بيد الله وحده، بعد أن عجز الطب وانه راض بقسمته .. ثمة كآبة تدخل صدرها. ضجيج البحث يسري بنبض متسارع .. متاهات لا حصر لها .. تضع تفكيرها أمام خيارات منونة: إن لم انجب سيتزوج عليّ، سيكون لي ضرة. سأحرم من كلمة "ماما" ربما يطلقني .. شئ من مخزون الذاكرة داعب ابتسامتها الشاحبة .. صوت ام عادل يخترق غياب الصمت: جارتنا أم حسين عجزت الأطباء من غير فائدة والآن بتقوم وتقعد وبتدعي لأبو سالم .. علامات الدهشة تعلو وجه المرأة .. لا تخافي يا سميرة .. الراجل مجرب وبيخاف ربنا كل نسوان الحتة بيروحوا عنده بيفك العقدة، بيجلب الغيب، وبيزيد المحبة وبيكشف المستخبي .. شغلانة مش حاتكلفك اكتر من ألف جنيه.

- بس جوزي مش راضي بيقول عنهم مشعوذين.
- وهو منين حيعرف .. روحي روحي قال مشعوذين قال.

في مكان آخر دورك أم عادل .. أدخلي برجلك اليمين يا شاطرة سيدنا أبو سالم بيزعل .. بركاتك يا سيدنا: جارتي وصحبتي قاصدين عطفك وكرمك.

- حي حي دستور يا أسياد دستور .. خادمكم الفقير أبو سالم بيناديكم حي .. الإجابة .. الإجابة .. السرعة بيتك في حي الصفا .. حزينة ومهمومة وعايزة أولاد حي .. حي .. دستور .. دستور همهمت

المرأة لجارتها بصوت خافت .. ده عارف كل حاجة عني واللهي.

- طبعا .. طبعا مش قولتلك ده أبو سالم حلال العقد والمشاكل حـــي .. دستور .. دستور.
- تروحي يا بنتي بالليل حاتحفري تحت الحيط الغربي مـــن دار أبـــو جمعة الوافي .. حتلاقي (صرة حمرا) تجيبيها وتيجي علي طول.

المساء يقتحم جدران النهار، حركات صاخبة تعبث في أحشاء الأرض، جنون الرحبة يمتطي المكان .. الصرة تقتحم المدى الذي تتنفس منـــه الغيـــوم .. الفراش يتثاءب النوم يمعن في شراء العصيان .. دوامة المتاهات تطلق مـــن جديد.. صوت الزوج سكب حارا في أذنيها "قسمة الله يا امرأة، المشـــعوذون مشعوذون".

قالت الزوجة في سرها ثم أردفت: ولكن الصـــرة واســـمي واســـم زوجـــي وعنواني و .. و ..

في هذه الأثناء كان رجال الشرطة يقتادون أحدهم يقال أنه من صبيان أبـــو سالم كان يحفر تحت الجدار الغربي لبيت أبو جمعة لأمر ما .. فيمـــا بعـــد تناثرت الأقاويل عن نبأ القبض علي امرأة تدعي أم عـــادل بتهمـــة إغـــراء النسوة واقتيادهن إلى وكر أحد الدجالين مقابل نسبة مئوية.

الرائحـــــة ! !

لم يكن يدرك سر هذا العطر بالذات ..وهو لا يذكـــر متـــى بـــدأ فـــي إستعماله؛ وإن كان من المؤكد لديه منذ زمن أن يقطن في ذلـــك البيـــت الملعون .كل ما تعيه ذاكرته أن صاحب الدار أشار عليه بتغيـــير ذلـــك العطر .. لم يع ما لمح به صاحب البيت ..لم يستوعب كل الأشياء ..لـــم يفكر في مفارقته لحظة واحدة ..لم يفكر في مفارقته لحظة واحدة ..لـــم يفكر في استبدال عطر آخر به..لقد اعتاده و الفه حتى أصبح بعضاً منـــه ..فهو ينتشر أريجه في البيت صباحاً ومساءً .. ومن الغريب انه لم يعـــد يشم رائحته أو يشعر بها لكنه رغم ذلك يفتقد فيما بين الخـــروج للعمـــل وحتي إيابه.

إنه تلازم عجيب بينهما .. لا يردي صاحبنا له سراً .. وفي يوم ميلاده الرابع والثلاثين .. باكر في ذهابه لعمله .. وفي الأتوبيس المزدحـــم .. وسيلة الانتقال اليومي من (العريش) إلى "المساعيد" حيث يعمل .. ومـــن قلب الزحام المعتاد علي الخط العتيق المليء بأشـــجار النخيـــل الباســـقة، والمباني السياحية .. انبعثت رائحة عطر رخيصة ... كريهة .. تباً لذلك الصعلوك الحقير .. إنه حقا عديم الذوق .. فالعطر مرآة لذوق صاحبة.

تمني لو استطع أن يقول له .. كف عن استخدامه .. ولكن لمن يقـول؟؟! تمني لو عرفه ... ود لو .. أضاف أن رائحة العرق في زحام الصيـــف

الملتهب لأهون بكثير .. تململ في وقفته كـــادت أحشـــاؤه أن تقفــز للخارج .. ما ذنبي أنا حتى أشم هذه الفظاعة؟ .. استدر .. ولكن مازالت الرائحة النفاذة تملأ الأرجاء .. أمسك أنفه بإصبعيـــه .. لكـــن الرائحـــة الصارخة أقوي .. لا مفر إذن .. عند أول محطة تالية غادر الأتوبيس .. ركب أتوبيساً آخر .. ولكن الغريب أن الرائحة الخبيثة تلاحقه .. اسـتدار يميناً ويساراً ولكن لا فائدة .. غادر الأتوبيس: ركب سـيارة والرائحـــة تلاحقه .. لم يكن هناك وقت للنزول مرة رابعة .. زفر بأنفه .. الحمد لله أخيراً "المساعيد" غادر السيارة مسرعاً .. وغادرت معهم الرائحة الخبيثة .. سار مهرولا .. ولكنه كلما قابل أحداً شم ذات الرائحة تحول سيره إلى جري وفرار .. في حجرة المدرسين ألقيَ بجسده المنهمك علـــي إحـــدى المكاتب .. أنفاسه اللاهثة تتلاحق .. تجب الزملاء .. ماذا حـــدث ؟ لـــم يعلق .. أسرع إليه أحدهم بكوب ماء مثلج .. لكنه دفعه بعنف .. لقد شـــم في الماء نفس الرائحة .. وربما شمها في زميله الذي حمل إليه .. ارتبك الزميل .. شعر صاحبنا بالخجل .. ولكنه لم يعتذر .. الجميع في دهشـــة .. انه في حالة غير طبيعية "مالك يا أستاذ أحمد" ؟ ! . دخلت العاملـــة .. قدمت إليه كوب الشاي الذي طلبه زميل آخر لتهدئته .. لكنه شم نفـــس الرائحة في الشاي .. وفي العاملة .. وفي الزميل .. وفي جميع الزمـــلاء .. كاد يجن .. ترك غرفة المدرسين إلى غرفـــة الســـكرتارية .. شـــم الرائحة في جميع الموجودين .. تركها إلى غرفة المعمل .. ثم إلى غرفة مديرة المدرسة .. تماماً كما في الأتوبيس .. أنها مؤامرة .. لقـــد اتفـــق الجميع علي مضايقته .. فتعطر بذات العطر الجـــهنمي .. ذو الرائحـــة الخبيثة .. لم لا يستعملون عطره الثمين الرائع؟

في نهاية اليوم .. ذلك الذي لا يعرف كيف انقضى؟.. وفي رحلة العـودة .. تكررت تجربة الذهاب .. حتى وصل أخيراً .. لم تكن زوجتـــه فـــي الشقة حين دخلها .. كان في غاية الإرهاق .. لم يستبدل ملابسه .. تنـــهد بعمق .. أخيراً اختفت الرائحة الفظيعة .. عادت الزوجة بعد قليل .. وما أن دخلت عليه .. حتى شم ذات الرائحة الجهنمية .. جن جنونه .. حتـــى أنت .. كاد يصرخ فيها ..فتحه فمه ليسألها .. ولكنـــه قبـــل أن ينطـــق نطقت: "كل سنة وأنت طيب" نظر إلى يديها الممتدة إليه بزجاجة عطـــر حديثة .. ما هذا ؟ هدية عيد ميلادك يا للســـخرية .. لقـــد اشـــترت إذاً العطر الجهنمي .. وتلك هي رائحته الفتاكة .. إليك بها عني .. إننـــي لا أغير عطري. يا رجل بالله عليك كفي .. لقد كادت الرائحة تهدم حياتنـــا .. ماذا تقولين؟ نعم .. لقد فكرت مراراً في طلب الطلاق منك بسبب تلك الرائحة النفاذة التي فرضت علينا شمها طيلة سكننا في ذلك البيت،

لهيب الانتظار !!

بلغ الوقت ساعة متأخرة من الليل ..أخزت النسمات الباردة تلسع أنف وجنتي (أم كلاني) التي لزمت نافذة المنزل مراقبه عودة وحيدها كيلاني .. كـانت تارة تنظر إلى الشارع الشاغر من أي كائن . وتارة أخري تنظر إلى زوجها الذي أعياه تعب النهار ملأ شخيره مرفقاً بصفير صدر كإعلان عما مر بـه من تعب وجهد طوال النهار .. تحدث نفسها و تقول "إزاي يجيلك نفس تنـام ربنا يسترها "قلبي من المساء مقبوض تعاود النظر والهمهمة ، بعدها عادت إلى فراشها لإيهام نفسها إن كل شيء علي ما يرام حاولت إغماض عينيـها بعد نهار من العمل المضني ، لكن هيهات فلو جمعوا نعاس وتعب الدنيا لمـا استطاعا إغماض عين لها دون أن تكتحل برؤية وحيدها الغالي (كيلاني) ابن التاسعة عشر ربيعاً .. تعاود الكلام (كل ده تأخير ؟) ..تقولها و قد أرسـلت نظرات .. توسل إلى مقبض الباب راجية أن يدور بين الحين و الآخر كي يعلن عن قدوم غائبها و إنطفاء نار الخوف التي يزداد سعيرها .. مع مـرور الوقت ومع ارتفاع صوت شخير زوجها ، عند بدأ المقاومة النـاس تـأوي بيوتها قبل غياب الشمس بسبب حذر التجول المفروض معظم أيام السنة علي المدينة ،راودت هذه الخواطر (أم كيلاني) فزاد خفقان قلبها و اشتد سـعير ناره أكثر .. حاولت أن تروح عن نفسها وتنسي ما يلفها من رعشة وخـوف متذكرة الكلمات (كيلاني هذا الصباح عندما قال لوالده و الخجل يلفه لقـد وجت..وجدت يا أبى..وجدت بـ.. بـ.. بنت الحلال التي خطفت قلبـي و أرجو أن تخطبها لي "وتذكرت فرحته عندما هز الوالد موافقاً لـه")..". بـس شاور .لي عليها" .. ابتسمت ابتسامة تعلوها مسحة الحزن لكن سرعان مـا عادت و اتسعت لتملأ وجهها الذي غزته التجاعيد و الأخاديد عندما قالت

(سأصبح جدة يا سلام و حايبقي أبو كيلاني جد.. هيه العمر بيجرى و الأيام بطير) .. صلوات ترفعها إلي الله ليعد لها ضالتها قال محـــاولاً تهدئتـــها : (نامى يا أم كيلاني)سيعود إن شاء الله لعله نام عند بيت عمـــه (خضــر)أو عند(فايز) زميله قالها هو الأخر محاولاً إخفاء ما اعتلاه من قلق و خــوف .. وقد اجتازت أفكاره و مخيلته حدود الصبر راودته خواطر استعاذ بـــالله منها وحاول نسيانها لم يجد هو الأخر بداً من القول " ربنا يســـتر و يجيــب العواقب سليمة " .. بدا الفجر بالإنبلاج وألقت الشمس بخيوطها الذهبية علــي أرض المدينة الكبيرة بشاطئها الساحر و نخيلها الأخضر المتراقص معلنـــة بداية يوم جديد .. نهض ابو كيلاني من فراشه بعد أن أكمل ليلته مســـتيقظاً ،دون جدوى قام يصلي صلاة الفجر راحت أم كيلاني تسير تجـــاه(وابــور الجاز القديم) لتدفيء الماء لزوجها ،بعد قليل ســينطلق فـــي مســيرة يومــه المعتادة فلا إلا عند غياب الشمس منهوك القوة.. أبو كيلانــــي يصلــي و أم كيلاني علي بعد خطوات منه واضعة يدها علي خدها تطلق تنهدات وزفرات ضاعت في صمت الموقف، عودتها كلمات جارتـــها أم رفيــق لمـــا قـــالت لها(سمعت يا أم كيلاني أن المحروس إنضم لشباب المقاومة الشعبية وللقـــوة الضاربة ضد اليهود الملاعين صار "فدائي" ربنا يخلهولك)كلام زاد حملـــها ثقلاً فعادت لكلمتها ذاتها ولكن بنبرة أخري قائلة:(ربنا يستر) الساعة تقـارب السابعة وأبو كيلاني لا ينبس ببنت شفة نظر إلي زوجته قائلا (اللـــهم إنـــي توكلت عليك .. ونعم الوكيل أنت) كان قوله هذا قد جاء علي ميعاد مع رددته حناجر شباب المدينة الباسله الذين تجمهروا ملثمين في بداية الزقاق لبيت أبو كيلاني صارخين في موكب مهيب " لا إله إلا الله محمد رسول الله و الشــهيد حبيب الله" رفع ابو كيلاني عينه إلي أكتاف الشباب ليري العلـــم المصـــري المضرج بالدم ، وقد لف جسد كيلاني ابنه الذي بدأ كما لو كان نائماً ويـــده

مضمومة لصدره ، لحظات وتجمع كل أفراد العائلات بالمدينة شيبة و نساء ورجالاً كعادتهم في مصاب عظيم كهذا .. بدأت المدينة بالغليان كبركان يستعد للفوران ، حرارة الشمس بدأت ترتفع .. أبو كيلاني يقف مسنوداً برجال العائلات وأم كيلاني تقف مشدوهة كمن يبحث عن طريق في مفترق طرق لم تدر ماذا تقول؟ وقد راحت النسوة تقترب منها مزغردات تارة و باكيات تارة أخري ،ومن بينهن كانت (صدفة)التي كان كيلاني عازماً علي خطبتها وقد اقتلعت خصلات شعرها في ثورة غضب حامله علي يدها المنديل المعطر الذي كان قد لفه علي رقبتها في أخر مرة رأته فيها ونظر أبو كيلاني إلي امرأته وقد أحس بأنه في حلم تمني لو يستيقظ منه ، وقال لها و قد أصبح أكثر صلابة عما كان عليه قبل قليل : (زغردي مع النساء يا أم كيلاني ، لقد عاد عر يسنا ..ألم أقل لكي أنه سيعود ؟ زغردي يا أم كيلاني .. زغردي يا أم كيلاني)

الظرف الأخير

دعوة أمها إلي تغير ملابسها مع الأسرة ..أسرعت إلي غرفتها أقفلت بابـها.. جلست خلف الطاولة ..فتحت بلهفة الدفتر الذي إحتوى لأكثر مـــن نصـــف ساعة عالماً غامضاً مشبعاً بالآمال.. ها هو الظرف الذي أصرت علي إعادة محتوياته إليها.. ربما أرادت اختباره لآخر مرة اختباراً هامساً مـــن ناحيـــة واحدة فقط .. هل يعيد آخر يربط بينهما ؟ هل يعيد بقاياها التي في درجه .. إن فعل فالتفسير الوحيد هو أنه منذ زمن بعيد إنتزعها من ذاكرتـــه و قلبـــه وحياته وبسهولة يسلم آخر الذكريات وهكذا كان أخرجت الأوراق بدقة قلـــب إضافية وإحساس مريض بالخيبة..أوراق شاحبة صفراء كـــأوراق خريـــف يابسة الأطراف .. خطر لها أن تعد الأوراق للتأكد من كونـــها كاملـــة..وأن تبحث عن ورقة ربيع واحدة جديدة..عليها حبر أخضر طري..لكنها أخـــيراً وصلت للمنزل ، مبلله بمطرمارسي رقيق ..رفضت آثرت أن تطيـــل عمـــر الشكوك و الآمال..علي الورقة الأولي التي بين يديها إعادة قـــراءة النهايـــة الحائرة ..إنه إخلاص نادر..لأن الإخلاص بات نادر من أية غربة مظلمـــة تخلق كل هذه الأحداث المتكررة..تكراراً قاسياً..ألقت الورقة جانباً وفتحـــت التي تليها..لم تكتمل.. قلبت الأوراق لا جديد كلها أوراق كتبتها يد تشبه يدها و قلب لم يكن لها..الورقة الأخيرة حسب الترتيب كانت أول ما خطته له منذ أربع سنوات..منذ البداية.. تشممتها حرفاً حرفاً.. بحثت عن كلمـــة واحـــدة منه..عن سطر وضعه عليه توقيعا..لكنها لم تجد غـــير وريقـــات الخريـــف المشققة التي سقطت تواً علي أرض مبتلة من خلال دموعها.. رأت نفســـها وهي تستلم الظرف مـــن صديقـــه مصطنعـــة..الثبـــات و المـــرح..وعـــد المبالاة..رأت نفسها و هي تسير وسط الضباب في الشوارع التي بدت لـــها

غائمة كسماء "يناير" ورأت نفسها تصعد الأتوبيس وديعة قلقة تفكر بالنهايـــة الحقيقية.. وكيف قضت عشرين دقيقة تحلم بالوصول إلي المنزل لتفتح ظرفه ورسالة أخيرة منه؟ تقرأ فيها إعتذاره إنابة عن الظروف عن القدر و الســنن الكونية..كيف أن حرارة الشوق تحولت إلي نفاذ صبر مــع بــرودة المطــر الربيعي الذي داهمها وهي تسير مسرعة في طريقها إلي البيــت ..تذكــرت أخيراً أنها تجلس والظرف تسأله ويجيب بكل صراحة وقد أجاب علي كـــل شيء .

جمعت الأوراق وأوراق كثيرة رفضت في الماضي ان تموت..جمعتها كلـــها وأطعمتها للنار وتطاير الرماد في كل مكان.. شاهدت كيف تصل النار كلمــه "الحب" فتحولها إلي سواد .. كيف يغدو كل الماضي ورقة ســـوداء تقطفـــها الريح فتصطدم بحجر فتتفتت وتتناثر في كل مكان ..ولكـــن كـل رمــاد الأوراق حط أرض خضراء أستقر كله في القلب *

قال له: لا تتردد التردد نهاية الاستسلام و التقهقر..لاريب أني ساكون بعد اليوم إنسان بمعني الكلمة متحملاً المسئوليات ،عندما أعرض المذكرة إلي مدير الإدارة..كلا.. كلا.. حتماً لابد أن تقدم إلي وكيل الوزارة مباشرة..أدرك أنة أول الشهر يمضي علي تعيني بالمدرسة الخاصة كمنتدب من مدرسة أخري حكومية..عملي هذا جاء بعد معاناة وضناء.. بجهدي وحدي لكن يهم الإنسان القيم و المبادئ ولابد من عرض أفكاري .

قيل له:هل يا ترى تظن نفسك من المكتشفين لسلبيات و أخطاء و مساوئ المدرسة؟.. كم مدرس معك في المدرسة ؟كم قسم بالمدرسة؟كم عدد الموجهين ورؤساء الأقسام؟

قال له:في حدة وتوتر ..الأخطاء بارزة كما ضوء الشمس ..أي إنسان يدركها حتى ولو كان حديث التخرج قليل المهارة إنها أخطاء جسيمة وخطيرة ألا تشاهد وترى بنفسك؟قال له(وهو يقيم الحجج و الأدلة ويحاول ربح الموقف بأي شكل)يقول انك قليل الخبرة .. أنت صغير السن، حديث العهد قال له: لكن الأخطاء واضحة كالشمس ظاهرة للعيان ..لا تحتاج المهارة و الخبرة أنظر ألا تري ؟ فقال له: إن الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تقاوم الرياح..القارب الصغير لا يقاوم الموج العاتي فقال وهو "يصرخ"أنني لا أقترف أخطاء..أنني أنادي بتصويب الخطأ ..فقال له: هذه سنه الحياة ..هل ستقيم الحياة كما تريد؟!! فقال:هناك آلاف بل ملايين غيرك سكتوا جميعاً..لا يجب ان أقف هكذا تلهوا بي الأفكار ..لابد أن أتخذ الرأي وأتشبث به..القرار قراري..(بلى)قراري بمفردي وحدي ..أنني علي صواب..وقد قرأت في أحد كتب علم النفس أن المرء أحياناً يكون في أعماقه أكثر من إنسان منها الطيب

ومنها الشرير ومنها الخبيث..لابد الآن أن أكتب المذكرة سأكتب المذكرة ..لا بأس..لا بأس .. أخذ ينفث دخان سيجارته في الهواء وهو يـــردد بصـــوت عال:"الحمد لله قاربت المذكرة علي نهايتها"..الحمد لله أن وفقتـــي أن أتفـــوه بكلمة الحق..ستتغير الأحوال ..سأجني ثمار قيم و مُثل منذ زمن وأنا أرنـــو لتحقيقها (سكون خيم علي المكان)

الورقة تقترب مع نهاية لفافة التبغ..أخذ يتأمل ببرود النار تلتهم الورقة..شعر بشيء خفي يمسك يديه ..أخذ يراقب النار وهي تأكل الحروف ..النار تلتـــهم الحروف بنهم الدور الآن علي كلمة "أخطاء" تآكلت .. ترك نفســـه ليســـبح بأفكاره مع إتساع الدائرة..النار تحيل الكلمات إلي رماد ..مازالت الكلمـــات تتآكل .. الدور الآن علي (القيم) المفروض "أقترح" ببرود شديد..أخذ ينظـــر للكلمات المتآكلة .. ماذا حدث؟ لقد غاب عنه أن يقضي علي أشخاص آخرين تكمن بأعماقه وتجري في داخله *

العودة

ها أنذا أعود إليك طول غياب ،أعود إليك ،طفل متعب مسـكون بـالوجع و الشوق و لهفة الإنتظار..أعود إليك كطائر عائد لوطنه..يستريح مـن تعـب الفراق ودموع السفر و الرحيل . أعود إليك يا حبيبتـي ..يحملنـي قطـار الغروب، وفي حقائبي وحدها الذكريات ترتعش من الوحدة ..وحيد.. أراقـب كيف تمزق النوافذ المضيئة تحت السحب المخنوقة بالدخان.. وبضعة فلاحين مهمومين في الحقول ، بدأوا العودة للبيوت مع دوابهم ،صامتين جنبـا إلـى جنب.. النهر قد رقد يرتجف في سكون.. والتلال تبدو كأطياف باهتـة فـي الحلم، تخفق بالأجنحة الرقيقة. باللون الأزرق الأحمر و الأصفر.. بينما الليل يبسط جناحيه من بعيد.. يهبط فوق الضواحي ..يمضي مترنحاً خلف السـوار الحجرية المهدومة،يشعل قطعة من قمر مضيء تتقد عيناه بشرارة حـزن.. يصعد من قلبي ،فتشعل الهموم بين جوانحي

آه يا حبيبتي .. قلبي علي فراش الموت ،قلبي يحتضر ، يئن مثل القش النائم ، يصرخ مضطرباً كالبحار الصاخبة، وحيداً في العتمة. يتلو آخر صلواتـه.. صلوات عاشق مهزوم أحزنه الزمن بات يحترق شـوقاً للنـور، للراحـة، لانبثاق أخضر تفجره عربدة الربيع و ضياء العيد الآخر.. أعود إليـك يـا حبيبتي .مثلما عادت طيور الحب..تملأ صباح العيد ، و ليل العيـد تتبـادل التهاني و الأمنيات و القُبل ،ترفرف بأجنحتها فوق المآذن البيضاء ثُم تحـط في الحدائق و الحقول ..حيث الفواكه و القمح والورد و الضـوء و القـش يتدفق منها زمان الصيف . لكنها حزينة مثلي ،لم تفرح بالعيد، يوجعها أنيـن البوساء ، ودموع اليتامى ،وعذابات الفقراء و المحرومين و المظلوميـن .. تنظر صوب الأرض المعذبة بأعين باهتة جامدة، وفي الجدول المتدفق تسقط

صامتة كورقات الشجر، فيغرقها التيار مثلما الطوف الخشبي ..خرساء مــن الألم..الأرض تئن يا ملاكي.. الوحشة في السهول ،خلــف جبــال الحــزن البعيدة،ينساب الوهج الأحمر ،وهج الحرب الثقيل.. الحرب لا تــزال تنفـث دخانها ،و الأقمشة البيضاء يلطخها الدم ،الأطفـــال يحصدهــم الرصــاص ،يتساقطون بالمئات كأوراق الزهر في ليالي الحزن العاصفة..مثل أعشـــاب الطيور تتهدم البيوت و المساجد و الكنـــائس و المــدارس و المستشــفيات ..صهرتنا المادة في وحشية، في عنف وحرارة .الرجال إســتعبدهم المــال، المرأة مخادعة وداعرة.الآلة سرقت من قلوبنا النبضات..دمرنا الحقد و الجــوع و الخوف

وأسلحة القتل و الإرهاب و العقل المغلق و الكراهية ..تقول الصحف "أننـــا أحرار، نجاهد لكي نسمح ما تحجر من قلوبنا المكتئبة ،فلا نستطيع" .. نحــن شعب جديد، وجنس جديد، ننطق حتى الكلمات جديدة، في عيوننا ينام الحلــم جريحاً .. فلا الروح ..ولا العقل ولكنه المال، و النفط منبثقا .ورنين الذهب*

توالت الذكريات

قالت له ذات يوم : ولدي لا تغادر.. أنت جسر البيت .. نظر إلـــي الأفـــواه الجائعة في الخارج ..كانت حبات المطر ترسم شكلاً ما فوق النافذة..المدفـــأة تصدر شخيراً مخيفاً..كأنها تنذر بالكارثة..كان صوت المغنية يصدح في كافة أنحاء الغرفة الوحيدة" خليك هنا و بلاش تسافر "هذه الأغنية أصابتها في مقتل حاول أن يتجاهل الموضوع.. أطفأ المذياع..أدار مفتـــاح التلفـــاز محـــاولاً صرف إهتمامه إلي موضوع أخر " أستاذ محمود في بداية ندوتنا هذه ..هـــل لك أن تحدثنا عن أخطار الهجرة علي الشـــباب و بالتـــالي علـــي أهلـــهم و مجتمعهم ؟ في الحقيقة لهجرة الشباب أخطار جمة و خطيرة أبرزها "..أطفـــأ التلفاز ، أمسك الجريدةعسي أن يفلح في معركته مع الذاكرة و النسيان..قلـــب صفحاتها..بلغ عدد المغتربين حتى أواخر العام الفائت " طوى الجريـــدة " .. مزقها..ولكن يا إلهي لا فائدة ..قال في سره:" شيء ما يلاحقه بدون أرجـــل بدون أيد بدون".. أحب أن يشغل نفسه بشي أي شـــيء غســـيل الصحـــون مثلاً..أمي كانت تضع الصابون أولاً ثم تمسك بالليفة هكـــذا ..أه يـــا الـــهي ..عدت للذاكرة من جديد.. كان طيفها يلاحقه أينما اتجه..رأسه تكاد تنفجـــر ..حبة واحدة فقط تسكب الذاكرة وينتهي الألم..لكن العلم لم يتوصل بعد..فتـــح الخزينة بحث فيها عن أي شيء يبعده عن المدينة وذكرياتها (ألبوم الصـــور مثلاً ..لا..لا إنه جامع الذكريات)..نظر إلي المفكرة لعلـــها تنفـــع ..قلـــب أوراقها.. بتاريخ السادس من الشهر الثامن عام ١٩٨٣ قدمت لي أمي دراجة عادية بمناسبة حصولي علي الشهادة الإعدادية..في الثامن من الشهر التاســـع عام ١٩٨٦ كانت الفرحة الكبرى بشهادة معهد المعلمين في التاسع من الشهر

الثالث من عام ١٩٩٠ كان اللقاء الأول مع سلوى يومها قال لها: " أحبـــك"..
قالت :وأنا أحبك أكثر.. إبق إلي جانبي ..قال:والله..ثم إنسالت دمعة تحـــت
الجفون.. بتاريخ الخامس من الشهر السابع عام ١٩٩١..غادر المدينة قـــالت
له: ولدي لا تغادر وأنت جسر البيت ..شيء ما لمع تحت الجفون ..نظر إلي
الأفواه الجائعة .. حمل الحقيبة و مضي .بصوت خافت حدث نفســـه:"أه يـــا
لهذه الليلة الملعونة" .. كل شيء يتجه بي نحو المدينة ..حبة واحدة فقط تمحو
الذاكرة..أوى إلي فراشه حاول ،ولكن لم يستطيع أن ينام ..أفكـــــار غريبـــة
داعبت مخيلته..أنفاسه أخذت تضيق..شيء ما يطبق علي صدره..لعن الحياة
أستغفر الله ..اطمأن قليلا غسل وجهه..إنشرح صدره شيئاً فشيئاً ..إستســـلم
لاغفاءة دامت حتى الصباح ..في الصباح " أستاذ حسان ..أستاذ حسان.. فتح
الباب مذعوراً..(عفواً أستاذ) ..وقع لاستلامه البرقية "برقية " خير إن شـــاء
الله ..تفضل .." بسم الله الرحمن الرحيم"
أخي العزيز/ .. أمك إنتقلت إلي رحمة الله تعالي .. إحضر حالاً ..اغرورقت
عيناه بدمعة لم يستطع كبحها ثم توالت الذكريات

الصرخة الأخيرة

قلت لي :عيناك شِعر تساقطت الحروف عند قدميه و أسلمته أنفاسَها فصنعَـها هواءً بتنفسه و ما إن أراكِ حتي تهبّ عليّ نسماتٌ رائعة من ذلـــك الـــهواء ..ربما لا أريد قراءة الجروف التي لا أرسم لها لكننـــي أعشـــق الإغتســـال بأنفاسها و أتمنى لو يستمر ذلك حتى ما بعد نهاية العمر .

- أتعجبين كيف تجيدين قراءة حركاتي..نظراتي ..حتي ابتسامتي وأفكـــاري .هوتي حين يخلو وجهي من التعبير ..كأنك أنا ..بيد أني لست أنـــا حيـــن أعجز أحياناً عن فهم بعض نفسي ..فتأتين بكل بساطتك ومرحك وتريحيـــن بعض الأغلال عن نفسي فأراهما و أفهمهما .

أفهمك تماماً أنني مجرد جسد أنت روحه أعشق براعتك في قراءة الكلمـــات التي لا حروف لها .

كلماتك البعيدة..أصبحت خناجر لا تكل عن طعني باســـتمرار .. لـــم يبـــق صوتها سوى الرنة الأخيرة للصلاة ..أخبرتك مرارا أن براعتي في فـــهمك لم يخلقها سوى وضوحك و صدقك ..عززها حب جارح جعلك كتابا سطوره أيام عمري .. فكيف إذن ستصعب علي قراءته ؟وكيف لا أفهمك وقد كنـــت دوما تتعرى من أى زيف و تغتسل في عينيه محض صدق و حب.

- حين غبت عني خشيت عليك من غبار الزمن و دخانه..لكنك عدت مشـــتاقاً للإغتسال من غبار أخاديد الحياة .. قلت لي يوماً: أنت الروح التي تتنفـــس الحب في داخلي أعدك بأن أحافظ علي صفاء النبع..سأبقي الكتـــاب الـــذي سطوره عمرك الغالية.. تكرر غيابك و إذا بالنبع تزيده أخاديد الحياة تكديـــرا كل مرة حتي كادت الروح فيه تختنق ..رمي عليك طول الفـــراق أوحالـــه فأختفي فيك كل ما كنت أقرأه و تحولت إلي طلاسم عجزت عن فك معظـــم

رموزها.. بهتت السطور حتي كادت تنمحي وتمزق الكثير مـــن صفحـــات الكتاب فتمزق عمري ..صرت أعيشه بلا عمر أنت في دوامة الحياة منشـغل عن هذا و الغشاوة علي عينيك تزداد قتامتها مع الأيام حتي لم تعـــد تحـــس نفحات الحروف التي كنت تعشقها لأنك منذ زمن بعيد نسيت أن تغتسل بعيني لا زلت تردد: (سنعيش سويا) نعم..أصدقك و بصراحة في بدايتي .. كنـــت أتمني ذلك حتى الموت لكن الآن مجرد فكرة "ترعبني " ليس لأني لـــم أعـــد أحبك بل لأنك أضعت الجسر الذي يمكن أن يحتمل جبال أشواقي الشـــاهقة . التي تراكمت طوال سنوات بعدك .

ترعبني لأن عتبة اللقاء التي كنت أرمي عندها آلام وجدي قد هزلت حتـــى كادت تختفي ..وترعبني أكثر غفلتك عن كل هذا ..أصرخ بجنون علك تتنبه وتعود لسابق عهدك لكنك علي الطرف الآخر للهوة التي تفصلنـــا ..تبتسـم باقتضاب ظنا أني أهتف بإسمك ليسمعه الكون مضمنا للحب كما كنت أفعـــل في أيامنا الغابرة .

تكتفي بنظرة إستغراب للحزن الذي يقطر من عيني .. صخب الحياة تســـرع لتغيب فيه لا يسمح بأكثر من ... ، يتعالى صراخي فيردده الكون حتـــى تتصدع النجوم و تصل الصدوع إلي جبلي و ها أنا مهددة بـــالموت تحـــت أنقاضه .. فيا من كنت أجمل عمر لعمري يا أروع قصيـــدة للشـــعر الـــذي عشقته و هام بك .. ها هي صرختي الأخيرة أرسلها إستغاثة أخيرة تحملـــها روحي للرمق الأخير المتبقي لي أرسلتها لتناديك عد .. عد للمرة الأخـــيرة ..عد و إلا ضاع منك حتى الوداع الأخير *

حلـــــم

تتصارع الأفكار في رأسه كالأمواج العاتية .. تقفز من أعليٰ إلي اسفل فـــي حركه إلتوائية لتحتضن الشاطئ بهدوء و تذوب مع حبات الرمال البلورية .. يتيبس عقلة قليلاً .. ثم سرعان ما يتّقد مرة أخري كالبركان الثائر الذي يقذف بلهيب في كل اتجاه معلناً التمرد و العصيان، تتنازعه الأشباح ..يصـــــرخ . يخفق قلبه بشدة ينكمش في فراشه يجذب الغطاء بحركة عشوائية ليغطي به وجهه ..يسمع أصواتاً غريبة يتملكه الرعب و الفزع .. يريـــد أن يبكـــي بشدة و لكن تأبي الدموع أن تسيل .. يتصبب عرقاً بارداً .. يجمع ركبتيـــه أسفل ذقنه ..و يغرس رأسه ،لا يريد أن يري ما حوله فكل شـــئ مفـــزع و مخيف .. الأصوات بدأت تتلاشى .. رويدا رويدا .. ولكن الصوت الصغـير ما زال يدوي في أذنه .. رفع رأسه قليلاً من تحت الغطاء .. ليتبين مصـــدر الصوت .. وجد صخرة كبيرة سوداء تتحدر ناحيته .. أخفـــي رأســـه مـــرة أخرى تحت الغطاء .. قلبه يكاد يتوقف .. إســـتقرت الصخـــرة بجـــواره .. تحسسها بطرف إحدى قدميه إرتفع صراخه في الحجـــرة ..ســـمع صـــوت قهقهات متقطعة. انهمرت حبات العرق علي جسده .. استيقظ ليجد نفسه عليٰ حافة السرير *

القرار الصعب

يقال إن الصداقة تكون أقوي في عهد الطفولة – فالصغار يضحون أكثر في سبيل أصدقائهم – كم مرة أنكر طفل علمه بمن تسبب في كسر زجاج بيت الجيران رغم كل الضغوط و ربما التهديدات التي يكون قد تعرض لها من طرف الأهل وذلك لأن صديقة هو الفاعل ..لكن هل نفس القاعدة تنطبق علي صداقة الكبار ؟.. تعود صداقة عثمان و جلال إلي سنوات ليست بالقليلة يعرف كلاهما الكثير عن حياة و أسرار الآخر .. يقضيان معظم عطل نهاية الأسبوع معا .. يتجولان أو يذهبان لرؤية فيلم و غير ذلك .. ذات مرة وهما يتجولان في أحد الشوارع المليئة بالمحلات التجارية أعجبا بقميص جميل لكنهما ليس معهما نقودا لاقتنائه ولسبب من الأسباب اتفقا علي سرقته حيث يقوم أحدهما بلبسه تحت بنطاله العادي وذلك في غرفة التبديل ثم يترك المحل بهدوء .. الحقيقة أن عثمان هو الذي أعجب بالقميص لكنه كان اكثر تخوفاً من جلال .. لذلك تطوع جلال بارتداء القميص ..تركا غرفة التبديل باتجاه باب المتجر مباشرة و قلباهما يرتجفان من الخوف لم يمض وقت طويل حتي وجدا نفسيهما بيدي رجال أمن المتجر .. بمجرد اقترابهما من الباب صدر صوت حاد من جهاز مراقبة موضوع بطريقة خفية عند مخرج المتجر ليجد الشابان نفسيهما في مخفر الشرطة في أقل من ساعة من ذلك .. وُضِعا في غرفتين مختلفتين وُجهت إليهما مجموعة من لأسئلة .. جلال هو المتهم الأول في محاولة السرقة هذى .. لأنه كان يرتدي القميص وقت إلقاء القبض عليه ..أما عثمان فأُخلى سبيله لعدم توافر أي دليل ضده ..رفض جلال الكلام ورفض الإجابة عن الأسئلة التي وجهها إليه رجال الشرطة ..أولاً : لأنه كان يعلم أن كلامه أو صمته لن يغير الموقف و لن يرفع عنه

التهمه .. كما أن اعترافه باشتراك صديقه طبعاً سوف يورط عثمان الذي سيكون المستفيد من القميص ، لكنه لن يخفف من وطأة الحكم علي جلال .. باءت كل محاولات رجال الشرطة لاستجوابه بالفشل ..وخلال صمته الطويل انتابته حيرة كبيرة فهو يدرك أنه في وضع لا يحسد عليه وعثمان له طرف في ذلك فهل يستمر في صمته في سبيل الصداقة التي جمعته بعثمان لسنوات طويلة وماذا لو كان عثمان في محله ؟..هل كان سيعترف بشراكته في الجريمة ؟ .. إنه حائر فماذا يفعل ؟ .. إذن إنه فعلا لقرار صعب *

داء و انتقام !!

اسمعهم يقولون أحزان الحياة داء . والنسيان دواءه لست أدرى إن كان قــولا حكيما أم لا ؟!.. فالنسيان والأحزان عندها ضدا ن لا يلتقيان .. بل إن كتابـة أحزانها علي ورق الذكريات لا يفوق سحر أعظمهم دواء.. لم تكن تعلـــم أن السنوات التسع الأولي من حياتها هي ربيع عمرها .ولم تدرك أن تلك الأيـــام القصيرة كانت جنتها وأن ما تلاها من أيام لم يكن سوى جحيـــم مســتعر .. كانت هي وأختها الصغيرة ذات الثلاثة أعوام حطبه المشتعل لا تزال تذكـــر ذلك البيت تقصد تلك الحجرة الضيقة..ذات الطاقة الصغـــيرة التـــي عشـــن حياتهن- الثلاثة-تحت سقفها وبين أركانها المتصدعة..لم تكـــن تختلـــف عـــن أترابها في شئ – كانت تأكل وتشرب وتلعب مثلهم تماماً – ولــــها بيــت وأخت وأم جميلة.لم تكن تسأل من أين تحصل علي كسرة الخبز؟ تلك التـــي تشبعها أو شربة الماء التي تطفئ ظمأها؟ لم يخطر علي بالها إجابات كـل تلك الأسئلة . حتى عندما كانت تري أمها المنهارة من شدة التعـــب .تعــود متأخرة كل ليلة من عملها كخادمة في بيوت الآخرين . ربما لأن صغر سنها لم يمكنها من رؤية ما هو أبعد من تلك الابتسامة الهادئة برغم كل شئ .وجـاء اليوم التاسع من سبتمبر حاملاً قدر أمها المحتوم ونهايتها الوشيكة. فقـــد أصيبت بداء عضال أنهكها وســـلبها إرادة الحيـــاة حتـــى خـــارت قواهـــا وضعفت إنها شاحبة الوجه مصفرة اللون يتـــهدل فـــوق جبينـــها خصلات شعرها الأسود الممزوج بالأبيض وتلمع فوق خديها حبات من الـدر المشع.كانت تشعر بالذنب العظيم وهي تراها علي تلك الحال..بل ممـــــا زاد قسوة الحال أختها الصغيرة التي تتلوى أمامها وتبكي بألم وتوجع..فقد أصيبت بالعدوى من أمها..انطلقت تحض خطاها في الميادين فـــي الســـاحات فـــي

الطرقات ..تطرق أبواب الرزق في البرد..تحت المطر. تصـــارع الريـــاح الهوجاء وحدها في ظلام الليل ؛لأجل كسرة خبز وجرعة دواء..حتى أهـــل حيها القديم لم يقربوا باب بيتها خوفاً من العدوى المحتومة.. لم يقدموا لها يد العون في الوقت الذي احتاجتهم فيه.. هي أيام معدودات كانت وفاضت روح أمها الطاهرة إلي بارئها .تبعتها روح أختها الصغيرة..باتت وحيدة تتقاذفـــها الأمواج العاتية في خضم معركتها مع هذه الحياة.. مرت السنون تلد الشـهور ..تلد الأيام..مع ولادة كل يوم كانت تكبر وهي تأكل فتات الخبز الملقاة علـي جوانب الطرق ..تحيا هائمة علي وجهها بغير هدى حتى بلغت التاسعة عشرة من عمرها..طوال تلك السنين الماضية من عمرها كان هناك شئ ما ينمـــو بداخل قلبها حتى بات حملا ثقيلا يكتم أنفاسها..يردد علي وجهها بغير هــدى

وعلي مسامعها حان الوقت الآن.. بالفعل بدأت العمل.. كل يوم كانت تمســك بالصحيفة اليومية.لتتابع ثمار عمل يومها المشئوم وتقلبها حتى يقع بصرهـــا علي صفحة الجرائم والحوادث فتفلت منها ضحكة مكتومة؛.. ترى صـــورا لجثث مسجاة علي الأرض.. تتابع كلمات العناوين الكبيرة..بلهفة..تلك التـــي تقول: عمليات قتل وسرقة تنفذ في مختلف المناطق ..لقد أشبعت جنون حـب الانتقام..لقد انتقمت لنفسها ولأمها ولأختها البريئة..انتقمت لأن أمها وأختــها أعدمتا بغير ذنب أعدمتا حين رفض مجتمعها هــذا مســاعدتها وإنقــاذ حياتهما..هذه هي نهاية الصفحة الأولي والأخيرة من مذكرات إنسانة تشـــق طريقها إلي الموت..لقد حان موعد إعدامهما ستتخذ طريقها إلي المشنقة بـــلا رجعة .

السقوط !!

ـــ وصلت مجمع الأتوبيسات صعدت الحافلة.. تصفحت الصحيفة ثلاثيــن مرة..لم أجد في عناوينها ما يشغلني عن فراغ المقاعد.. بعد ساعة امتــلأت كــل المقـــاعد.. ثمــة مقعـــد واحـــد فـــي الأمـــام ينتظـــر السائق..شيوخ..نساء..أطفال..رجال يتزاحمون في منتصف الحافلةـــ وأخيراً وصل السائق..أخذ مكانه.. نظر إلي المرآة.. وصرخ إرجعوا إلـــي الخلـــف ..هناك متسع ..تدافعت الأكتاف. وتزاحمت الأرجـــل امـــتزجت أصـــوات الاحتجاج ..الحافلة ضيقة ..لا مجال للرجوع " بقينا عـــاملين ذي الســـردين فوق بعضنا " صرخ به السائق بإمكانك النزول الآن..أثنـــاء ذلـــك صعـــدت الحافلة عجوز تحمل علي رأسها قفصاً.. حبست فيه دجاجةً ..صرخ الســـائق ماذا تحملين ؟قالت : عشرين دجاجة وديكا .. ضحك كل من فـــي الحافلـــة ..عاد السائق مكانه ثم انطلق بنا ساعة ونصف ولم نصل بعد ..آه لو سمعت كلامك يا "وئام".. لا .. لا لم أسمع سأصرخ في وجوههم جميعاً عندما يكـــون للصراخ معني .. مسكينة "وئام" تألمت كثيرا..عندما أخبرتها بنقلي من مكـــان عملي نقلاً فنياً لصالح العمل ..هه يريدون أن يضحكوا علي " قال نقلاً فنيـــاً قال " ..ما أسخفهم عندما يريدون تبرير بعض المســـائل ..إنـــهم يريـــدون التخلص مني .. "أعرف أعرف " لماذا تطاوعهم إذن؟بـــالحق فحســـب ..لكنك وحدك..أدرى ..لكننا سنسقط جميعاً ؟ يا "وئام" عجـــلات الحافلـــة تلتهم الطريق .. نصف الركاب تتدلى رؤوسهم علي صدورهـــم والنصـــف الأخر أتعبهم المشوار ..فجأة عند منعطف حاد تمايلت الحافلة إلـــي اليميـــن وإلي الشمال ترنحت.. امتزجت أصوات الركاب بأصوات الدجاج فزعاً ..ثـــم عاد السائق وسيطر علي الحافلة مرة أخرى .. عادت الرؤوس المتدلية ..هـــل

تعذرينني لو صرخت ..ويأتيني صوتها "حط رأسك بين الروس وقـــول يـــا قطاع الرؤوس ".. صرخت ويقطع رأسي لا لن أضعه بين الرؤوس تحسست رأسي بذعر وجدته بخير ..حمدت الله ..أندهش العجوز ..الجالس بجـــــانبي ..أنت متعب يا ولدى " آه لا بأس.. داس السائق علي كوابح الحافلة بصـــورة مفاجئة تدافع كل من في الحافلة ..سقطت نظارتي،علا الضجيج وأصــــوات الدجاج مرة أخرى رفعت صوتي :أيها السائق أرواحنا بين يديـــك .. رفقـــاً بالفرامل ..من هذا الفيلسوف الواعظ .." بجلافة قال":بيننا شـــيوخ وأطفـــال :عليك بنفسك فقط ..صرخت بأعلى صوتي .."سنسقط جميعا يا بنـــي آدم " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..سوق يا عمي سوق ..فجـــأة صـــاح ديـــك العجوز .

الولد الملعون

أجلس حيث الجسد متعب و الضجيــــج ..تعــب وليــل طويــل و أحــاديث كثيرة..أركض وعينا رجل تتربص بي.. تلاحقني كعيني فأر و أنا مــــازلت أفترش أحلامي فتنزلق بين جفني قصائد مغناه و ضحكات ألوكها مــــا بيــن إضاءات الإعلانات و مّلل المقاهي وحديث الأصدقاء الذين يتشــــاجرون و الأبنية التي تعوم فوق أمواج الكلام فيصير الكلام لزجا بينما تسلط الســـكين فوق عنقي عينا الرجل تنظر إلي ثوبي فتفترسني هو متعب مثلي وصــــامت، ضجيج نظراته ، يطفو حتى أذني .. الشوارع خاليــــة و الأزقــــة حزينــــة و الضحكات تعلو من حولي . عينا الرجل الفأريتان تخترقان مسامات جســـدي المدثر بالتعب و الأرق .. حديث الأصدقاء يعلو .. الصمت يهين في إلـــى حد الاستعباد يبتسم صديق لصديقة بسخرية وعينا الرجل ما زالتا تلاحقـــانني فأزد أد ضيقاً من نظراته المتكررة نحوي وتعمل في نفسي رغبة بالبكـــاء أو البصق كلما اقترب الرجل بكرسيه من كــــرسيّ تزحــف الأمــواج نحــوي والأفاعي و العقارب و النمل يدب تحت جلدي ، أتناول كتاباً مــن حقيبتــي أقرأه في نفسي أتشاغل عنه بثني أوراق الكتاب تارة و بتمزيق بعض أطرافه تارة أخري فأجد عيني تلتصقان بي و أنفاساً تلسع وجهي و تــــهمس :هــل تستبدل مكان جلوسك بمكاني ؟؟ أستبدل مكاني بمكانك لأ طبعــــاً .. قــالت نظرات الولد لي و أضافت:ربما تجيء"هيام"هنا ولا تراني .. صمت الولـــد قليلاً وأراد أن يضيف شيئا آخر إلا أنه تذكر"هيام" إبنة السبعة عشر عامــاً .. صبية يانعة نقية كنسمة صبح طري .."هيام" التي لعب أمامها الولد أثيراً كــي يلفت أنظارها إليه فظلت أنظارها تتعلق بالنخيل البعيد .. أمه قالت ذات يــوم أن هيام أصبحت عروساً جميلة فضحكت" أم هيام" كثــيراً حتــي اغرورقــت

عيناها .. ثم قالت متفاخرة بأن كثيرا من العرسان تقدموا لخطبة هيام فرفضتهم ورفضت أستاذ المدرسة الذي طلب من شيخ القبيلة أن يخطبها له .. سمع الولد الكلام و ازداد إصراره سعادة فربما رفضت هيام العرسان كلهم من أجله هو لأنها تحبه..هكذا النساء .. قال الولد هامساً أو أضاف " يتدللن و يتمنعن وهن راغبات " ضحك الولد فجأة لأنه وجد نفسه يردد كلام أبيه بينما يضع إصبعه خلف أذنيه تماماً كما يفعل أبوه في المساء كان يجلس في غرفته أمامه كراسة رسم و في يده علبة ألوان مائية و في اليد الأخرى الفرشاة علي الورقة الأولي رسم خطاً فكان بيتا خط بقلم الرصاص علي دفتره عينيها الواسعتين ثم قال : هذه عروسي .. رسم سريراً و غرفة،أنامَ العروسَ في السرير و غني لها " مساء الخير يا "هيامُ" .. مساء منه لا أحلي ..صباح منه لا أحلي .. نهار كله عنوة " مسد لها شعرها .. فأغمضت عينيها ونامت .. تسلل من غرفتها ..خرج مسرعاً وصل باب بيت "هيام".. طرقه عدة مرات ثم دخل ..جلس علي كرسي خشبي طويل وضع رجله اليمنى فوق رجله اليسرى ويده أسفل ذقنه تماما كما يفعل أبوه حين يريد التحدث في أمر هام نظر إلي أبي هيام وبثقة قال الولد : أريد فنجان قهوة لو سمحت .. ضحك أبو هيام لطرافة الولد ابن العشرة أعوام ثم قال أحضري القهوة يا هيام .. فنهضت هيام وبقى الولد صامتاً للحظات ..تأفف خلالها كثيراً وبعثر خصلات من شعره عدة مرات ثم قال : أعطني سيجارة لو سمحت .."سيجارة"تساءل أبو هيام بدهشة "وأشعلها لو سمحت ..حاضر ..تناول أبو هيام سيجار من علبة سجائره و أشعلها ثم ناولها للولد الذي اغرورقت عيناه سعالاً و اختناقاً ..ما الذي يزعجك ؟ سأل أبو هيام تحبباً ..أريد أن أتزوج .. تتزوج !!!.. أتزوج هيام .. هيام ابنتي ؟!! وهل تمتلك مهرها ؟ دخلت هيام .. يلمع ضياؤها كلمعان أسنانها و بريق عينيها

..تعالى يا هيام و اسمعي كلام الولد ..أنا لست ولداً يا عمـــى وقـــد أصبـــح عمري عشرة أعوام (ويريد الزواج منك !!) أكمل أبـــو هيـــام ..منّـــى أنـــا ؟؟تساءلت هيام بدهشة .. ضحكت هيام كثيراً .. ضحك الأب كثيراً فهمت أم هيام سبب حرص الولد علي البقاء جوارها و جوار أمه وقت حديثهن الهامس عن الليلة كان يزداد انتباهه كلما تحدثنا عن زواجها فيطرق السمع و يتظاهر بانشغاله في اللعب بكرة صنعتها أمه من جورب قديم .. ماذا قلت يا عمـــي ؟ هل أنت موافق ؟ موافق .. موافق على ماذا ؟ تساءل أبو هيام .. هيام موافقة اسألها .. قال الولد: ولكن هيام تكبرك بست سنوات وهى مخطوبـــة لرجـــل ..وأنت لست رجل ؟ أنت ..أنت ولد ملعون ..الأرض تدور .. السماء تـــدور المكان يرتج الولد يغضب يثور ..ينهض يمشى في ممر المقهى عينا الرجل تطارده .. يصل باب المقهى .. أنظر أراها قادمة من بين السيارات مســوعة مخترقة أشجار النخيل الباسقة طالعة النضيد .. انظر لساعة معصم يـــدي .. ابتسم لها تقترب منى تسألني هيام إلي أين أنت هارب أيها الولد الملعـــون ؟
" انتهت "

الشعاع الشارد !!

تلك الصبية مستأنسة بدموعها . حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها ، عادت تتذكر أحداث اليوم .. حتى إذا ما وصلت إلى ذلك الجزء الذي ضيع قلبها .. حجبت وجهها بيديها ، وبكت بكاء مراً ،نزلت الدموع سخينة ، ثم عادت فهدأت ،أبت نفسُها الكبيرة أن تتألم من تلك الأشواك التي إختارتها بقلبها نتيجة الشك و الخوف ، مشاعره تغيرت تجاهي .. أنا أحس بذلك ..حدثت الصبيه نفسها : هل من الممكن أنه تراجع عن وعده ولوث قدسية حبنا ؟..هل تذكرت ذلك الفتى الذي أسرها بتلك الأشعة المنطلقة من عينيه و تلك الأغصان المرسومة على جبينه .. تذكرت إبتسامته المشابهه دموع ثكلى وصوته الذي يحكى لصدى الوادي البعيد ، تذكرت مُذ كان يتأمل الأشياء بنظرات طويلة هادئة ثم يتكلم عنها بغرابة ، ثم يحنى رأسه و يتنهد كأنه يخاف أن يشق حديثه بقايا قلبه الكبير تذكرت كل تلك الأشياء فى فتي أضحت تحتقره وكأنه هدم كل الجسور التى بنياها معاً ليوثق حبهما و يمجداه إلي الأبد.

ذلك الفتى الذي لم يترك شيئا واحداً بحيث يحق لها أن تسلم له أقدس أسرارها ، أخبرته عن ذلك التشوه في ظهرها نتيجة حادث حرق في صغرها ، فوجئت به يعاتبها على إخفاء هذا الأمر عنه طوال تلك الحقبة .

أخبرها بأن كل ما فيها يخصه كما يخصها، ليس لها أن تخجل من هذا الشيء الذي سيزيد من مكانتها فى قلبه، عندما غمرها بذراعيه ليشعرها بالطمأنينة والأمان .

أمّا هى فلم تصدق ما حدث للوهلة الأولى لكنها عاتبت نفسها فيما بعد على عدم وثوقها به فى ذلك الوقت.. ها هي الآن تسخر من سذاجة مشاعرها

وتؤنب نفسها على بلاهةأفعالها ، كان لا بد لها أن تتهيأ للنهاية ، التى طالما تجاهلت مجيئها، اليوم ذهبت ولم تجده .. انتظرت ولم يأتِ ، بل بعث صديقة ليخبرها بأنه آسف على عدم استطاعته الحضور لانشغاله بعمله الجديد الذي تسلمه اليوم ، لكنه سيتصل بها الليلة لمناقشة شئ هام لابد من مناقشتة معها .. القلق والهلع يمزق أحشائها ، أخذت الدموع تنتشر فى الآفاق لتجمع بين الكلام ومكنونات صدرها .. ألهذة الدرجة يحتقرها ؟ أبهذة السهولة أقتلعها من قلبه ؟ أم أنه لم يتكبد عناء إقتلاعها خارت قوى الصبية وسقطت على الكرسي تنوح أسفاً على الأيام التى أضاعتها هدراً .. كلا.. لم تسمح لهذه الحياة بأن تسرق ما تبقى من عمرها .. لن تتخلى عما تبقى لها أبداً .

ثارت غريزة الصبية حتى إذا ما امتلكت مشاعرَها خزائنُ أسرارها .. تناولت قلماً وأخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموع الغضب لتفجر ما فى صدرها .

جففت دموعها .ونزعت قلادة محبوبها تتأملها للمرة الأخيرة .. تغلفها السكينة من كل جانب ، إلا أن جرس الهاتف صدح بالغرفة .. يكسر ألواح السكينة المحيطة بها.. استيقظت من أحلام اليقظة لتقذف بالقلادة إلى الهاتف ، وتركض خارج بيتها نحو عالم آخر .. تاركة جرس الهاتف يدق فى بيت فارغ *

قرار!!

يجب أن تنتهي هذه المهزلة .. أن ابدأ هكذا .. لم أعد أحتمل .. لأن أكـــن جريئاً مرة واحدة في حياتي أخذت أردد هذه الجمل و أنا أربـــط الحبـــل بعصبية في سقف الغرفة .. الآن سينتهي كل شيء و لـــم يبـــق أمـــامي إلا رؤيتي الأخيرة .. أكمل بها طقوسي الجنائزية ..وهي قهقهة ساخرة تهتز لها الجبال .. لففت الحبل حول عنقي .. وصوت الطبول يصم آذاني ..

وفجأة خطرت لي فكرة .. نعم يجب أن أقوم بجولة أخيرة ..جولة اســـترجع فيه الماضي بأحزانه و آلامه ..أذهب فيها إلي كل الأماكن التى أعرفـــها و أحمل لها في نفسي مكانة خاصة .. إلي تلك الشوارع التي تكـــاثرت عليـــها أقدامي بخطواتها ..إلي تلك الأماكن التي كتبت فيها ذكرياتي بالأيام و السنين و البكاء و الألم .. كانت السماء موشحه ببعض الغيوم و أشعة الشمس تحاول التسلل من خلالها . لتربط السماء بالأرض بخيوطها الذهبية .. التفتّ لحظـــة إلي شجرة الزيتون العتيقة أمام البيت فقد تعرت من أوراقها التـــي تتســـاقط الواحدة تلو الأخرى لتصنع من الأرض مقابر جماعية لها . ما أشبه هـــذه الحياة الخريف بالموت و الأوراق بالبشر . كنت في هذا الوقت المبكر أســـير وحيداً .. نظرت إلي الطريق الممتد أمامي في هدوءه كأنه مقبرة .. وإلـــي المنازل علي جانبي الطريق كشواهد القبور ..ولم أكن أسمع تلك اللحظـــة إلا صوت الرياح تضرب أوراق الأشجار لتعزف في حفيفها لحن الخلود. آه كـــم يعرفني هذا الطريق و أعرفه بأحجاره التي طالمـــا وقفـــت تحتـــها وبكـــت أخرجت علبة السجائر ..تناولت واحدة وقد راعني هذا الكم مـــن الجـــراح . كان كل جرح يروي ألماً – ترك في يدي علامة دائمة ،وليت كل جراحـــي

ظاهرة فما أكثر جراح القلب .نظرت إلى السيجارة متسائلا لماذا ندخن ؟ مع العلم بأن التدخين يقتلنا .. هل لأننا نتمنى الانتحار ؟ ولا نملك الجرأة للإقدام علية ؟

ملمــح

برز وجه من وراء النافذة الحديدية .. عاود البزوغ مرة أخري .. نادي علي زوجته .. بأعلى صوته: "نصرة" .. أين أنت؟ دوي اسم نصـــرة فـــي كــل الأرجاء المتعفنة من المكان .. سمعه الكبار والصغار .. قال كيـــف حـــال الأولاد؟ ردت "نصرة "بخير وكيف حالك أنت، رد بخير، خرجت الكلمة مـــن بين شفتيه متقطعة مذبوحة ممدودة لها معاني جمة .. نصرة هــذه الأيـــام سوف تمر .. المهم حافظي علي نفسك .. يختفي مرة أخري خلف الشـــباك الحديدي وهو يحلم بالحرية .. يبرز من هناك ضوء مصباح خافت للزنزانة .. يصيح حارس السجن بأعلى صوته: .. كـــل المســجونين يذهبوا للعنبر الخلفي .. الزيارة انتهت.

رؤيـــة

في كل مرة يغادر فيها قريته قاصدا المدينة يضع في حساباته احتمال رؤيتها مصادفة في موقف السيارات مثلا .. تصعد الأتوبيس نفســه الـذي يسـتقله ورغم أنه ممتلئ بالركاب ستصعد وتقف بجوار مقعده ستلتقي العيــون فــي نظرة خاطفة .. يبقي منها بريق خافت يردد همسا إنـــها ولهـة للمفاجــأة المرتقبة بفارغ الصبر رنين يشبه الأجراس في ليل صامت .. يحــرك كـل المشاعر دفعة واحدة ما بين محبة آفلة لها في البال جذور وغضب تصاعدت وتيرته طوال أيام الفراق التي لا تحصي بسهولة ورد الفعل سيكون سريعا ذا لهجة حانقة سيدير رأسه في غيظ لنظر ممتنعاً علي غير عادته في كل مــا يراه من خلال الزجاج ولا يري شيئاً .. وقد يخطر له في ارتباكه وتشـــتت أفكاره أن يقرأ سورة الفاتحة للمرة الثالثة منذ مغادرته قريته في أقـــل مــن عشرين دقيقة .. مع ذلك لم يكن مرتاحاً في جلوسه .. هل يقف ويدعوها إلى الجلوس مكانه؟! .. سؤال سيظل يلح عليه طالما أنها لا تزال واقفة والمسافة لا تزال طويلة إلا أن الكبرياء الذي سيملك نفسه .. يمنع مثل هذه المبـــادرة الجريئة من التسلل إليه وفتح طابور مهادنة وضعف في حصنه الحصيــن .. لم يكن خياله ليسمح لها بالجلوس تنتفي الشهامة لم يبادر أي شـــخص إلـــى الوقوف ودعوتها للجلوس مكانه .. كما وأنه لا توجد محطات يـــنزل فيـــها بعض الركاب وتخلو أماكنهم فتجلس .. سيحاول الهرب من ذكرياتـــها دون جدوي .. سيجدها وقد أحاطت به من كل ناحية .. وأين المفر؟ .. يـهدهدهما الوقت المسروق مع المنعطفات الدائرية .. في الصواعد والنوازل كمـــا لـــو

أنهما في مركب يتهادي ثم يصدر الموج هدير ; وبعة ستفتلع كل ما تصادفـه عائما دون مأوي في العمق .. يتمني لو أنهما .. وقفا قبل أن تدق سـاعات توقف الزمن العظيم حيث يكون البوح أجمل وأوقع في النفس .. إذن لما كان هذا موقفا جديراً بلقاء العشيقين ولما كانت الرؤية من زوايا العيون .. تختلس النظر إلى الثوب كئيب اللون فأصابع اليد التي تختلج كلما أسرع الأتوبيس أو انعطف ثم تتأملها منتصبة تري بماذا نفكر الآن؟ .. سؤال أخر يخامره لتوك علي الوجه حمرة دامية ساخنة أتراها تفكر بما أفكر به الآن؟ .. وبماذا أفكـر أنا؟ .. يقطب حاجبيه ويبدأ باللوم والمحاكمة هي التي بدأت بالجفاء .. سـيهم بإخراج سجائره .. ولكنه يتردد .. هنا أنحدر به الأتوبيس ليصل إلي آخـر محطة لم تكن هناك كما لم تكن في الأتوبيس*

السّمانة

قبع بجوار عربة شقيقه الحديدية في سوق الخميس .. يتأمل من بعيد السـمان الصغير ..تقدم من أخيه .. طلب منه شراء السمانة الصغيرة .. أذعـن الأخ الأكبر لرغبة أخيه الصغير و أشترى له سمانه صغيرة .. فرح الطفل فرحـاً شديداً بهذه السمانة ..كان يشعر بلذة غريبة و السمانة تنقر في يده الصغـيرة كأن السمانة تقول : " اتركني أذهب بعيداً ".. جاءت الأم إلي السـوق لتقـدم لإبنها طعام الغذاء .. رأت ابنها يلعب بالسمانة الصغيرة قالت : اترك هـذه السمانة تطير بعيداً ..سوف تتسبب في موتها ..لم يسمع الطفل كلام أمـه و استمر في اللعب ..أطفال السوق إلتفوا حوله يحاولون النيل من الطفل ولكنـه أستطاع أن يحمى سمانته منهم ..مر رجل بجوار العربة وجد الطفل يلعـب بالسمانة التي كانت في حالة من الإعياء الشديد .

_ قال : اترك هذه السمانة يا بنى .. إنه كائن حي مسكين لا حول له و لا قوة ..أتركها حفظك الله ..لكن الصغير لم يطع كلام الرجل و أستمر فـي لعبـه .مرت لحظات و الصغير يلهو و يعبث بالسمانة الصغيرة .. ولكنـه أحـس فجأة بأن جسمها أصبح بارداً جداً ..لا حراك فيه .. لقد أغلقت السمانة عينها إلي الأبد .. لم يحس الصبي إلا بالدموع تنهمر من عينيه .. حزناً على موت المسكينة التي تسبب في موتها عمداً بسبب قسوته الشديدة *

خريف ١٩٩٢

فنجان قهوة

عيناي خلف زجاج النافذة ،ترقبان الطريق المبتلة بمياه المطـــر ..مـــا زال المطر يتساقط ، حباته منظمة خفيفة ..الغيوم تملأ السماء ، تتجمع من هنـــا وهناك ..إنه الشتاء يعود بائساً حزيناً كما رحل ..قضيت ليلي ساهراً خلـــف المنضدة المضاءة ..قرأت كثيراً .. أشعارا عن الحب و الحـــزن .. أشـــعارا عن الوطن و الدم ..لكني لم أجد نفسي.. بحثت عنـــها خلـــف الســطور .. عدوت من صفحة لأخرى .قلبت الفواصـــل واشـــارات الإســتفهام تعبــت ..توقفت .. ألقيت نظارة القراءة علي الطاولة .. فركت ظهري على الكرسي الخشبي ..إرهاق يدمر جسدي و أفكار تؤرقني ..أتوسل إلي النوم بلا جدوى ..أعود إلي الكتاب .. أيها الحب ليتك كنت وردة جميلة ..هل كانت ستحبني لو علمت أني جبان وأطرد الأفكار بل أحاول إقتلاعها . تنشب مخالبها فـــي كل خلايا جسدي ..أتناول رقوه القهوة المسودة لكثرة الاستعمال ، خيط الماء المتدفق من الصنبور أشبه بفكرة تتدفق بحيوية ثم إلى الأبد ..لـــون اللـــهب الأزرق تحترق رقوه القهوة ، يذكرني بعينيها عندما قلت لها : إنني أعشـــق لون عينيك لأنه يذكرني بلون ثوب أمي الأزرق .. ضحكت ..ضحكت بعمق وتسمت علي شفتي إبتسامة مبهورة بلهاء ..قالت وهي تغالب ضحكتها : أنـــت أروع من يجيد الغزل " ابتسمت لها مجدداً ..رغم أن لهجة السخرية في كلماتها لـــم تعجبني " ..انطفأ اللهب الأزرق بفورة القهوة .. أغلقت مفتاح الغاز .. حملت

رقوتي .. سكبت ما فيها في فنجاني الوحيد .. رائحة القهوة منعشة ..كـــانت أمي ترفض سفري وتكرهه لأنها تعشق تراب الأرض .. سأعود يـــا أمـــي ..سأعود يوماً .. لن تعود " من يترك الأرض لا يعود إليها أبداً " *

الأديب في سطور

. حسن غريب أحمـــــد

. مدرس أول لغة عربية

. عضو اتحاد كتاب مصر

. أمين عام جماعة الأدب العربي بالإسكندرية

. سكرتير نادي أدب العريش

. عضو نادي القصة بالقاهرة

. صدر له من قبل :-

١- الانحدار إلى أعلي (مجموعة قصصية)

٢- رغبات تحت المطر (رواية)

٣-تجاعيد علي حجر من ذهب (مجموعة قصصية)

٤- لا وقت للآه (ديوان شعر)

. تحت الطبع (امرأة تعزف علي الأسلاك الشائكة) بالهيئة العامة لقصـــور الثقافة .

.للأديب عدة دراسات نقدية في مجال الشعر و القصة و الرواية في المجلات الأدبية المتخصصة داخل الجمهورية و بالوطن العربي .

• الأديب حصل علي عدة جوائز بالمراكز الأولي في مسابقة القصة القصـــيرة بالهيئة العامة لقصور الثقافة وجماعة الأدب العربي بالإسكندرية.

ينشر له بالمجلات والصحف الأدبية المتخصصة في مجالي القصة والشعر.

الفهـــــرســــت

تابع الفهرســــــت

رقـم الأيـداع I.S.B.N9061/2002